



# مراجعات

ملحق شهري تصدره وزارة الأوقاف والشؤون الدينية

صفر 1443 هـ - سبتمبر 2021

## الصفحة الأولى...

### هلال الحجري

من الشعراء الذين تأثروا بالثقافة العربية الشاعر والصحفي الإسكتلندي ويليم مذرويل William Motherwell (1797-1835). أشهر أعماله الأدبية جمعه للأشعار الشعبية الإسكتلندية وهي مجموعة من الأغاني الفلوكلورية التي جمعها وحررها وقدم لها مقدمة تاريخية ونشرها عام 1827 بعنوان «Minstrelsy: Ancient and Modern». كان مذرويل على اتصال بالكاتب الإسكتلندي الشهير ولتر إسكوت، كما أنه حظي بإعجاب الشاعر الأمريكي إدجار آلان بو، الذي يفترض أنه رأى طبعة بوسطن عام 1841 من قصائده. تترجم له قصيدة بعنوان «سفينة الصحراء» المنشورة في أعماله الشعرية.

### سفينة الصحراء

يا ناق صَبْرًا... لا تني... والى الأمام... سيري ولو بُطْنَا على رَمْلِ الحِجَامِ  
ريحُ السُّمُومِ توقَّفتْ، فتقدَّمتي... مأمونتي وامضي إلى رُوضِ الشَّامِ  
أوفيتي لا تفتري فامامنا... بنز مَلاذٍ للظَّمَاءِ وللظُّوَامِ  
إنِّي لاسى أن أراكِ عليَّة... وأرى فراقك، يا رفيقة، من سقامي  
وبعيد هذا القَصْرِ أبصر جنة... خضراء، حيث النُّخْلُ بأسفة القُوَامِ  
أرضٌ مقدَّسةٌ تغيث حجاجها... مني ومثلك في رحيل أو مقام  
وبدا بعينها هلاكٌ شاخصٌ... ومُسافرِ الصحراءِ كَفَّ عن الكلامِ  
فالعُربُ شمسُ بلادهم مثلُ اللظى... تذرُّ المسالكَ في اشتعالٍ واضطرامِ  
وبكى المسافرُ في المتاهة وحده... وطفى عليه الهمُّ من نأي الخيامِ  
ورأى رفيقةً ذرَّبه قد أزهقت... يا ونيجَ مُرَّحِلِ بداهيةِ الظلامِ  
فنداؤه في الدُّوعادِ بلا صدَى... أين الأنيسُ؟ فلا رجاءَ مُستهامِ  
ماتا معاً، شققَ السماءِ غطاًؤه... وغطاؤها، موتُ الغريبِ بلا سلامِ  
وهناك قُربُ النَّبِيعِ تكمنُ حُفرةٌ... للراحِلينِ اللاهثينِ من الأوامِ  
وعظامُ شيخٍ ناحِلٍ مُستوحشٍ... وعظامُ ناقته، هيا بيضَ العظامِ!



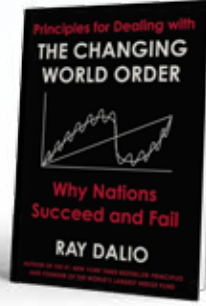
دماغ الزواحف...  
سباستيان لوميرل



أركيولوجيا التوراة...  
إريك كلين



السَّرِقَةُ من السَّرَاقِ...  
ديانا دارك



لماذا تنجح الأمم وتفشل...  
راي داليو



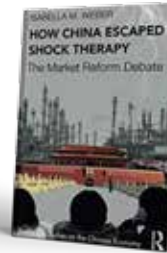
الحروب التجارية...  
مايكل بيتيس وماثيو سي كلاين



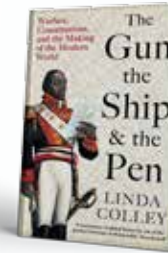
ما بعد نهاية التاريخ  
سيرجي جلازيف



مستقبل التعليم  
هيزكي آرييلي



كيف نجت الصين  
من العلاج بالصدمة  
إيزابيلا ويبر



البندقية والسفينة والقلم...  
ليندا كولبي



تاريخ علم الاجتماع  
في ألمانيا  
ستيفان موبويس

## إصدارات عالمية جديدة





## «السَّرِقَةُ من السُّرَّاقِ» كيف شكَّل المعمار الإسلامي أوروبا ديانا دارك

محمد الشبيخ \*

ثمة رواية شهيرة للروائي والمفكر الألماني جوته تحمل عنوان: سنوات تعلم فلهم مايستر (1795-1796) تحكي عن مسلك بطلها في تعلم أمور الحياة. وقد استلهم الفيلسوف الألماني الشهير جادامير ذلك العنوان ليروي عن تكوينه الأكاديمي في مؤلف عنوانه: «سنوات التعلم الفلسفي» (1977). وكان بإمكان كاتبنا البريطانية ديانا دارك. أن تستلهم العنوان نفسه في تسمية كتابها هذا الذي بين أيدينا: «سنوات التعلم المعماري» (2020).

المشيده بالخشب المنحوت نحتا ومتقنا والمزوق بكروم ملتوية وأوراق متعرجة وفاكهة نضرة، باتت تعابنها بأعين جديدة. وها هي أمست تعلم الآن من أين استقى هذا الطراز؛ بما أغنى من فهمها. فكان أن جاءت تغريدة الباحثة: «ينحدر تصميم نوتردام المعماري. شأنه في ذلك شأن سائر الكاتدرائيات في أوروبا. مباشرة من كنيسة قلب لوزة المشيدة في القرن الخامس الميلادي بسورية. والصلبييون هم من جلب فكرة البرج المنئى المحيط بنافاذة الوردة إلى أوروبا في القرن الثاني عشر الميلادي. وهي كنيسة توجد في قلب إدلب، وقائمة إلى يومنا هذا». وسرعان ما تهاطلت ردود الفعل المنذهلة. وإذ تنبهت الباحثة إلى أن التغريدة إنما عزفت على وتر حساس، قررت أن تقدم إنارة على موقعها الإلكتروني عنوانها العنوني المثير: «ميراث نوتردام. أقل أوروبية مما يعتقد الناس». وسرعان ما أثارته هذه التنويرية زوبعة من الاهتمام الإعلامي. إذ اتصلت بها جرائد تستأذن في النقل، ونشرت التدوينية في وسائل اتصال عدة ونقلت إلى أسن متنوعة: العربية والفرنسية والألمانية والصينية واليابانية والهندية... وكان أن تساءلت المؤلفة: ترى، أئمة استعداد، في جو وخيم يضج بمخافة الإسلام، للاعتراف بأن طرازا معماريا لصيقا بالهوية الأوروبية المسيحية إنما هو مدين بأصوله إلى المعمار الإسلامي؟ وماذا لو كانت العديد من الكاتدرائيات الأوروبية قد استلهمت من قبة الصخرة بالقدس رغم كل التمييزات التاريخية التي رامت إخفاء ذلك؟ وقبل وبعد، كيف يمكن لكاتدرائياتنا القوطية الأوروبية العظيمة، التي هي التجسيد الحق لهويتنا القومية والمسيحية، أن تكون تَمَّتْ بأية صلة إلى المسلمين أو العرب؟ ما الذي يمكن أن يعنيه هذا؟ وما البيئَة عليه؟ ما الذي تعلمته أوروبا من مغامراتها الأولى في الأراضي المقدسة والشرق الأوسط، وهي البلاد نفسها التي ولدت فيها المسيحية؟ وماذا عن الاستمدادات الأولى من الطرازات المعمارية من الأندلس وصقلية وإيطاليا لقرون مديدة قبل مجيء الصليبيين ومن التفاعل الثقافي العابر للبلدان؛ شأن فينيسيا ومالطة ورودس وقبرص، في السنوات التي تلت الصليبيين؟ وماذا عن العثمانيين القوة العظمى في أوروبا لأربعة قرون؟

### عنوان مثير للجدل

عنوان الكتاب إشكالي ومزعج ومستفز: «السرقه من المسلمين». والمؤلفة ترى أنه يحتاج إلى توضيح؛ لأنه اختير بعناية فائقة ويمكن قراءته قراءات متباينة: استعملت لفظة Saracens بدلالة

كما تقول، حجارته، حتى تترك روح هذه الآثار تنفذ إلى روحها. مناسبة تأليف الكتاب

### فكرة وحادثه

أرادت المؤلفة للفكرة التي أودعتها هذا الكتاب أن تكون خميرة وليست قطيرة. إذ تخمرت في ذهنها السنين الطوال، ثم من مرحلة الكمون هذه سرعان ما انقذت بفعل صدفة حدث. ترى، ما الحدث؟ وما الفكرة؟ أما الحدث، فيبدو عند أول النظر ألا صلة له بموضوع الكتاب: احتراق كاتدرائية نوتردام بباريس يوم 15 أبريل 2019. على أنه حدث تعدد الكاتبة بمثابة الشرارة التي انقذت عنها مناسبة تأليف الكتاب بعد أن كانت تخمرت طويلا. إذ لحت المؤلفة في جهود إعادة ترميم الكاتدرائية مناسبة للتساؤل عن الأسرار الكامنة في قلب المعمار القوطي والإسلامي ومحاولة كشفها. وبما أن أزمة كورونا لعام 2020 أوجأتنا إلى التوقف عند ما لا يقين فيه، فقد وجدت الكاتبة أن إحدى وسائل السلوان تكمن في إعادة اكتشاف المعمار الديني وقدرته على التهدة والإشفاء. وقد ذهبت إلى أن نغير التداخي إلى ترميم كاتدرائية نوتردام ما كانت له صلة بأي حمية دينية. إذ اهتمام الفرنسيين بمعمارهم الديني لا يتناسب مع إدارهم عن الاعتقاد الديني. وهي تحاول تفسير ذلك، في بلاد فرنسا ذات التقليد العلماني الراسخ، بالهجرة، لا سيما من بلاد الإسلام؛ حيث باتت تبدو للكثيرين مهددة للهوية القومية المسيحية التي ترمز إليها كاتدرائية نوتردام. وهنا تتساءل المؤلفة: لكن، ماذا لو تم تذكير الفرنسيين أنفسهم بأن هذا البنيان القوطي الطراز، الذي لطالما تم ربطه بالكاثوليكية في أوروبا، إنما هو مستلهم من العمران الإسلامي الذي كان قد استجلب إلى أوروبا قرونا قبل تشييد تلك المَعْلَمَة؟ هنا تلتقي الحادثة بالفكرة. وتروي المؤلفة كيف أنها منذ أمد اطلعت على رأي كبير المعمارين البريطانيين، كريستوفر ورين، ذهب فيه إلى أن: «ما نطلق عليه اليوم اسم المعمار القوطي» إنما يلزم أن نطلق عليه وجه الدقة والحقيقة اسم المعمار الإسلامي». وقد ظلت هذه الفكرة ترن في ذهن المؤلفة على فترات. وإذ عاينت ما عاينته من معمار إسلامي وغربي، انقذت الفكرة فجأة في ذهنها بعد أن زودها هذا المعماري بعدسة للرؤية جديدة: وها هي قد باتت الآن تعابن في العديد من الكاتدرائيات الغربية الأقواس الثلاثية الفصوص والنوافذ المدببة والقباب المروحية والمنطقة الواقعة بين المذبح العالي والصحن في الكنيسة

إذ أودعت فيه عصارة جولاتها وخبراتها وقراءاتها في الطرازين المعماريين الإسلامي والغربي. على أنها فضلت عنوانته تهكما: «السرقه من السُّرَّاق» أو «سرقه السُّرَّاق». وترجع المؤلفة أن اسم «السُّرَّاق» أو «السَّرِقَة» Saracens اشتقه الصليبيون من فعل «سرق» العربي ليصموا به العرب المسلمين، لكن لو نحن سلمنا، جدلا، بأن العرب المسلمين كانوا «سُرَّاقا»، فما كان الغربيون أقل سرقة منهم؛ هم «سُرَّاق السُّرَّاق». هكذا أرادت الباحثة لعنوان كتابها هذا أن يكون صادما ومزعجا، رادة إلى نحر القوميين من الأوروبيين وصمة «السُّرَّاق». وقد استخدمت هذا الرسم الذي أطلق على المسلمين العرب Saracens بدلالة أوسع ما تكون؛ فلم تقصرها على ديانة هؤلاء، لا ولا على الثقافة سليمة الديانة الإسلامية، بما في ذلك الثقافة المعمارية، وإنما شملت بها روحا ثقافية بدأت حتى قبل الإسلام؛ لتعني الميراث الذي ورثه العرب عن أسلافهم؛ بحيث لا تقصر الاسم على «الطراز المعماري الإسلامي» حصرا، وإنما تفيد به استلهامات الطراز الدائري القبلي والهامة...

وكانت تشربت الباحثة ميراثا ثرا: أنفقت هي قسطا وفيرا من طفولتها في التنقل داخل البلاد الأوروبية، مستكشفة كاتدرائياتها ومواقعها الأثرية ومراكز ذاكرتها الثقافية؛ بما كان من شأنه أن نعى لديها الحس المعماري مبكرا؛ وذلك بفضل من أمها الألمانية ومن أبيها الإنجليزي أستاذ الألمانية الذي كان يعزف على الأورغ في زياراتهم للكنائس. وبجامعة أوكسفورد العريقة شغفت باكتشاف مواطن ميلاد الحضارة، فأثرت مجرى تكوينها الأولى في الألمانية والفلسفة الغربية بتعلم العربية، بعد أن هي شغفت بها الشغف. وقادها تعلمها اللغة والأدب والثقافة العربية إلى توسيع آفاقها إلى ما وراء أوروبا... تلت ذلك رحلات إلى الشرق الأوسط وإلى تركيا للشغل وللاستمتاع معا. وشيئا فشيئا حصلت لها أنسة وألفة، بله أخذة وجذبة، بأهم المعالم العمرانية الإسلامية والمسيحية الشرقية. لا سيما في تركيا وسورية ولبنان والأردن ومصر وعمان. واهتمت على الخصوص بأعمال المعماري العثماني الشهير سنان...

هي إذن كاتبة جؤالة. إذ منذ السبعينات من القرن الماضي وهي تدرع بلاد سورية، حيث البنايات المعمارية منبثة في الأمكنة والأزمنة. تدرع سورية والأردن ولبنان وفلسطين وتركية تتأمل في الجامع الأموي الكبير بدمشق، وقبة الصخرة الأموية بالقدس، ومربع الأمويين وساحاتهم، وأنقاض مدينة عنجر... متحسنة ولا مسة،



ورثته الحضارة المسيحية العربية، وهذا الميراث بدوره ورث من الميراث الهليني الروماني لمنطقة شرق البحر الأبيض المتوسط، والذي هو أيضا ما كان «غريبا» بحتا. إذ تأثيرات الشرق الأدنى المعمارية تجد جذورها في تقاليد بلاد الرافدين المعمارية العتيقة التي تم استدماجها في التطور اللاحق للمعمار الكاتدرائي. وقيل أن تفرض البدوات والغزوات اليونانية والرومانية فكرة الفصل بين «الشرق» و«الغرب» على الشرق الأدنى، ما كانت المنطقة، على الوجه المجل، منمطة تنميظا فنيا على الطريقة السطحية التي توحى بها أشكال الفن اليوناني الروماني. فما من معمار يقام إلا ويتأثر بما قبله. الوصل هو الأصل. لا شيء ينبجس من فراغ. بهذا يحاول الكتاب الجواب عن مسألة كيف بنيت الحضارات المتعاقبة على إنجازات سابقتها، وكيف ولجت ابتداعاتها على وجه التدرج إلى أوروبا، محدثة بذلك تغييرا على المعمار الأوربي وفق طرق واضحة للعيان أحيانا وملتبوة أحيانا أخرى إلى درجة تم إهمالها عن قصد أو تم ببساطة نسيانها.

تختم المؤلفة عملها بنبرة حنيئة: كثير هو ما تعلمته مدينة فينيسيا الإيطالية من اتصالاتها بالمدن الإسلامية؛ نظير دمشق وحلب والإسكندرية والقاهرة. ومنه أن التصور الإسلامي للسكن يقوم على فكرة أن الشأن في نمو الجماعات الحيوي أن تتحلق حول البنايات الدينية والتجارية الأساسية في المدينة. ولهذا طورت فينيسيا مناطقها السكنية في صلة بشبكات البيوتات المتراسة جنبا إلى جنب في إطار اجتماع بشري متلاحم. وهنا لا تخفي المؤلفة حنينها إلى هذا الطراز من العمران، فتنتشئ القول: حينذا لو أن المعمار، بدل أن يُستخدم الاستخدام في حروب ثقافية مفرقة، إنما يُستعمل إيجابا بأيد من سياسات حكومية متنورة؛ فيسعى بعيدا عن فكرة الضواحي الرتيبة. وهو أمر من مخلفات العصر الحديث. نحو إعادة توطين المناطق المركزية في المدن؛ بحيث يمكن للجماعات مرة أخرى أن تبنى البناء العضوي وأن تتطور، راسمة سبيل عيش المستقبل. الذي لربما يكون هو الطراز الإسلامي عينه. نحو مجتمع أشد تلاحما واندماجا؛ حيث يمكن للسكان من جديد أن يتعرفوا إلى جيرانهم ويعرفوهم. ولسوف يكون هذا الأمر بمثابة استعارة معمارية تحتفي بها سائر بشرية اليوم.

## • عنوان الكتاب

## • السرقة من السراق

## • كيف شكل المعمار الإسلامي أوروبا

## • اسم المؤلفة

## • ديانا دارك

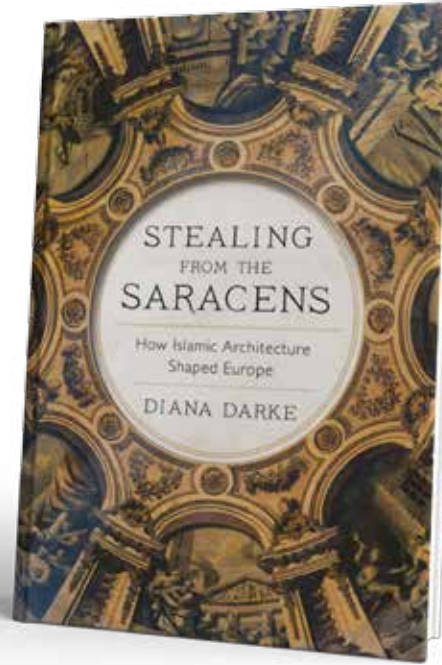
## • دار النشر

## • مطابع جامعة أوكسفورد

## • سنة النشر

2020

\* أكاديمي مغربي



تفاعلات إسلامية مسيحية على مستويات عدة، فكذا كان حال المعمار القوطي الإسلامي. ومجمل دعواها بهذا الصدد أن ثمة تشابها بديا بين المعمارين باديا للعيان، وأن ثمة تماثلا خفيا ممتعا عن الأعيان. من جهة أولى، تثبت المؤلفة عبر فصولها الشائقة التماثلات الدالة على التأثيرات: البرجان المثنويان، المنارة، خلفية الكاتدرائية، الأقواس المدببة، وتلك التي تشبه معالمها الحصان والتزيينية، النوافذ الحجرية المزخرفة، تقنيات القباب، الشرفات ... هو ذا ما كان قد تبدى للباحثة عند الشروع في تأليف الكتاب. لكن سرعان ما تجلى لها ما كان من الشبه الخفي: القوس ثلاثي الفصوص ومتعددها، الأروقة المكونة من الأقواس المتقاطعة، الأديرة، المذبح، الزخرفة، القباب المثناة، تقنيات الزجاج الملون، الزخرفة بالحجارة ... تلك تقنيات انتشرت عبر ربوع أوروبا، لكن منبتها وجد في الشرق الأوسط، ولا سيما في سورية. ولا غرابة في ذلك؛ إذ شهدت سورية، بمعناها الواسع القديم، ميلاد المسيحية وحضنها في القرون الأولى الحاسمة. أكثر من هذا، تتقاسم الديانات التوحيدية الثلاث تاريخا مشتركا من الأنبياء والملوك، ودعاوى متقاسمة عن الحياة الأخرى والنعيم والجحيم.

## بنية الكتاب

في الفصلين الافتتاحيين الأولين، تناقش الباحثة آراء المعماري البريطاني الكبير كريستوفر ورين، ثم تستقصي أمر المعمار القوطي بحسبانه معمارا إسلاميا الاستيحاء والتصوير. وتقيم على أساس هذين الفصلين، فضلا بعد فصل، مروية المعمار بدءا من الميراث ما قبل الإسلامي. سورية، العراق، إيران، فلسطين، تركيا. مستهدفة استقصاء التأثيرات العيانية المدينة إلى هذه الحضارات المعمارية: ترى، كيف دخلت هذه الطرازات؟ وكيف انتسجت في النسيج العماري المحلي؟ وبالبديل من أن ترى المؤلفة في هذه التطورات تطورات خطية بسيطة اختزالية، تفضل صورة الدائرة المتداخلة السردابية المتاهية ... وبمبعد عن كل نظرة أحادية ترى التأثير والتأثر ولا ترى التأثير، تسعى الباحثة إلى إقناعنا بأن الحضارات المعمارية البشرية كانت متحالفة يستمد بعضها من بعض على سبيل التبادل: الميراث المعماري البيزنطي المبكر الذي

قدحية لتطلق على المسلمين العرب الذين حاربهم الصليبيون على مدى قرنين، بدءا من عام 1095م، في «حربهم المقدسة» لاسترداد القدس. وتُنسب إلى لفظ Saracens اشتقاقا افتراضية عدة. لكن المؤلفة ترجح أن تكون قد أخذت من الفعل العربي «سرق». ومن ثمة اعتُبر المسلمون «نهابين» و«سراقا» من وجهة نظر المركزية الأوروبية. وهذا الحيف في وصف الأغيار ظالم ومشين، وهو ما حدا بالمؤلفة إلى رد التهمة إلى نحر المتهمين: التهكم من الغربيين باتهامهم بالسراق وهم الذين اتهموا خصومهم العرب المسلمين بهذه التهمة! وبهذا يسمي رمز الروحانية المسيحية. الكاتدرائيات الغربية التي هي عنوان فخر ومجد وتفرد. مسروقا منتهبًا! وتلاحظ المؤلفة أن الغربيين انتهبوا. في سوادهم الأعظم. إلى خلاصة يعتبرون فيها الشرق الأوسط والإسلام أمرين عادة ما يقتربان بصور سلبية: العنف، التطرف، الإرهاب. وقليل منهم من حظي بحظوة الرواح إلى المنطقة وخبرتها بنفسه منذ الربع العربي (2011) وما نجم عنه من حروب أهلية.

## مقدمات أطروحة الكتاب

تُشير المؤلفة إلى أنها لطالما كانت مفتونة أشد فتنة تكون بالمعمار، مأخوذة هي بتلك القوة التي تدفع البشر إلى تصميم بنايات بطرق معينة في أماكن محددة ولأغراض مخصوصة. وقد قادها اهتمامها المبكر بمواطن نشأة الحضارات البشرية وبالبنائيات العالمية وبالجماعات البشرية إلى دراسة اللغة العربية. فضلا عن السنوات الثلاث التي أمضتها في ترميم بيتها بدمشق رفقة الصناع المحليين من الحجارين والنجارين والرخامين والجصاصين والقرموديين والصباغين والرصاصين. وهو ما ألهما استبصارات عدة في تصميم البناء ما كان بمكنتها أن تكسبها لوحدها بمجرد البحث والمطالعة، قضت أمدا في التجوال حول الشرق الأوسط، متأملة في رسومه وربوعه ومعالمه وآثاره ... مقارنة له بالمعمار الأوربي، لا سيما منه الكاتدرائي ...

ولا تنفيا الباحثة أن تنكر المعمار الأوربي بالمرّة، وأن تنتكر لمنجزاته المبهرة العديدة. لكنها لا تريد، في المقابل، أن تقول إن ثمة معمارا «لنا». معشر الأوربيين، يخصنا لوحدها. إنما الشأن في المعمار أن يُستعار. كل يبني على ما سبقه. فما نشأت القباب المثناة والأقواس المدببة والأقبية المضلعة ... هكذا في أوروبا فجأة، وإنما هي اكتشافات معمارية تقنية تعاورتها الأمم. ولما كان المعمار اختيارا مقصودا، وصورة تعكس الذات، كما أنه يرتبط، حين يتعلق الأمر ببناءات عمومية وتشبيكات تاريخية، ارتباطا وثيقا بالهوية القومية، فإن من شأن الطرازات المعمارية أن تتعارك وأن تنازرت في ما بينها البين داخل الثقافة عينها، وفي ما بين الثقافات المتباينة؛ ومن ثمة يمكن أن تنشأ «حروب معمارية» تحدث الشقاق بين الثقافات: الشرق ضد الغرب، المسيح ضد المسلم ... وهو ما يحدث اليوم، لا سيما عند العديد من الغربيين.

## ملخص أطروحة الكتاب

تركز المؤلفة على المعمار القوطي، وتربط أصوله بالحروب الصليبية. وما تكشف عنه هو الأطروحة التالية: كما أن الحروب الصليبية ما كانت حدثا معزولا، وإنما سلسلة أحداث موصولة لم تنبجس فجأة لما دعا البابا أوربان الثاني النصارى إلى اللحاق بالأرض المقدسة عام 1095م، فكذا هو المعمار القوطي لم يظهر هكذا فجأة عن غدارة في القرن الثاني عشر الميلادي. وكما أن الحروب الصليبية ما كانت مجرد شبكة معارك ومواقف وهذات وتحالفات، وإنما كانت أيضا



## أركيولوجيا التوراة مدخل تمهيدي إريك كلين

### عزالدين عناية \*

انطلقت أولى عمليات البحث الأثري في فلسطين على أيدي لاهوتيين غربيين وليس على أيدي علماء آثار. ومنذ الشروع في التنقيب والحفريات كان الكتاب المقدس اليهودي بأسفاره المتنوعة دليل البحث ومعياره، حتى انطبعت الوقائع الأثرية بمرويات التوراة بشكل طاع. وإلى حد تحوّلت الاكتشافات إلى مجرد ترصيف للقي الأثرية ضمن لوحة فسيفسائية جاهزة الملامح. فمع كثيرين ممن امتهنوا الاشتغال بالعاديات في فلسطين شكلت التوراة خريطة الطريق التي على ضوئها، ووفق مقولها، يتم فك شفرة الآثار القديمة للمنطقة وما جاورها.

بأبحاث في أريحا، خلص على إثرها إلى أن خراب المدينة وتدميرها قد حدث خلال العام 1400 قبل الميلاد على يد يشوع بن نون الذي خلف النبي موسى (ع) في قيادة جحافل اليهود نحو «الأرض الموعودة»، وقد ثبت ذلك الحدث أثرياً حسب زعمه. تبين لاحقاً أن خلاصة تلك الأبحاث الأثرية أكذوبة علمية وفضيحة في تاريخ أركيولوجيا التوراة، وألا وجود لقرائن أثرية تجمع بين الرواية التوراتية والمكتشفات المزعومة. وفي تلك الفترة أيضاً كان يغانيل يادين (ت. 1984)، وهو عسكري وأثري إسرائيلي، يسير على خطى آلبرايث، مصراً بدوره على إيجاد مصداقية للرواية التوراتية. ولجمعه بين الوجهة العسكرية والعلمية حظي يغانيل يادين بدعم خاص في إنجاز أبحاثه من دافيد بن غوريون رئيس الوزراء الإسرائيلي حينذاك، وفتحت أمامه أبواب الجامعة العبرية في القدس على مصراعها.

شهدت أركيولوجيا التوراة مرحلة جديدة في أعقاب الحرب العالمية الثانية، وتحديدًا بعد الحرب العربية الإسرائيلية (1948)، من خلال التركيز على مجالات يُفترض أن يُعثر في طياتها على ترابط بين الإسرائيليين القدامى والإسرائيليين الجدد، بغرض صياغة رؤية قومية تثبت صدقية الرواية التوراتية وتبرر شرعية المشروع الصهيوني. لتشهد دائرة البحث التوراتي توسعاً على إثر استحواذ إسرائيل على الأراضي العربية بعد حرب 1967، وتتمدد دائرة البحث إلى مناطق أخرى دون أن تتمخض عن نتائج لافتة.

في القسم الثاني يركز إريك كلين على أهم القضايا المطروحة في الحقل. فما يلوح جلياً من خلال الكتاب أن الأركيولوجيا التوراتية غالباً ما أُريد لها أن تتكلم العبرية، وكأن العبرية لغة البدايات والنهايات في المشرق العربي. والواقع أن العبرية لغة إشكالية منذ بداية تدوين التوراة. ولعل أولى القضايا التي تعترض الباحث في توراة موسى، مسألة اللغة التي كُتبت بها النص. فليس

انصرفت إلى تعزيز معارفها التاريخية والأثرية بأرض فلسطين، وبمقرات عاملة في مدينة القدس. وعلاوة على أولى المؤسسات مثل «صندوق استكشاف فلسطين» الذي أشرنا إليه آنفاً وقد تأسس في بريطانيا خلال العام 1865، أنشئت للغرض ذاته مؤسسة ألمانية وهي «جمعية فلسطين الألمانية» اهتمت بالأبحاث التاريخية (1878)، ثم «المدرسة التطبيقية للدراسات الكتابية» المعروفة باسم (École biblique) التابعة للآباء الدومينيكان الفرنسيين (1890)، وفي مرحلة أخيرة ظهرت «المدارس الأمريكية للبحث الشرقي» (1900)، التي حازت على مكتب لها في القدس أيضاً. وفي روما أنشئ «المعهد الحبري لدراسة الكتاب المقدس» خلال العام 1909، بهدف تطوير البحث الأثري، بمكتب في مدينة القدس أيضاً.

يعود إلى ويليام فوكسويل آلبرايث (ت. 1971)، سليل عائلة مبشرين ميثوديين أمريكيين، وُضع أسس علم الآثار التوراتي، فهو أول من سعى إلى توزيع التاريخ التوراتي إلى أحقاب متنوعة ومتباينة. ومنذ انطلاقه في البحث الأثري حظي الرجل بدعم من جامعات خاصة، ونال رضى الدوائر المسيحية التبشيرية والصهيونية التي كانت تحفزها أهداف سياسية ودينية مضبوطة، وهو ما شكك في استقلالية أبحاثه. تجلّى ذلك الانحياز من خلال نهجه «العلمي» الهادف إلى سحب ماضي فلسطين الثري والحاقه بقراءة تخدم المشروع الصهيوني الصاعد. ثم تسلّم نيلسون غلوك (ت. 1971) المشعل من آلبرايث في تلك المهمة الخطيرة. وقد كان غلوك حاخاماً يهودياً قبل أن يصير باحثاً أثرياً، تتلمذ على أيدي آلبرايث في «المدرسة الأمريكية» وتعاون معه في العديد من الحفريات، وكان غلوك مقتنعاً أن البحث الأثري في فلسطين ينبغي أن يسير بخطى متوازنة مع التوراة. ومع غلوك توّقت الصلة بين مؤسسات البحث الأثري الأوروبية والجامعة العبرية في القدس لأجل خدمة المشروع الإسرائيلي.

في مستهل ثلاثينيات القرن الماضي قام جون غارستانغ

حاول المؤلف إريك كلين توزيع كتابه إلى قسمين أساسيين: الأول تناول تطور أركيولوجيا التوراة، والثاني اهتم بارتباط البحث الأثري بالكتاب المقدس. سنحاول في هذا العرض الإتيان على أهم القضايا المطروحة في الكتاب وتناولها من منظور نقدي. نشير إلى أن إريك كلين هو أستاذ الأنثروبولوجيا في جامعة جورج واشنطن وباحث أثري، قام بسلسلة من الحفريات في فلسطين وله مجموعة من المؤلفات التاريخية تتناول تاريخ التوراة وتاريخ فلسطين القديم.

في القسم الأول يلفت انتباه المتابع للبحث الأثري في المنطقة التي شهدت ظهور الكتاب المقدس اليهودي أن أركيولوجيا التوراة، منذ النشأة، قد وُلدت رهينة نص ديني، وهو ما منع تطورها الحر والعلمي. كان هدف إدوارد روبنسون (من مواليد 1794)، أحد آباء البحث الأثري في فلسطين، وهو لاهوتي أمريكي من كونتيكوت، إنجاز جغرافيا تاريخية توراتية لفلسطين من خلال مقارنة الأسماء العربية بالأسماء القديمة الواردة في الكتاب المقدس. فقد كان الإحساس الديني غالباً على رجل الدين المسيحي المتطلع للبحث الأثري. وهكذا بدت مدينة القدس ملكاً له وفلسطين أرضاً مسيحية يهودية، وهو شعور قديم ومتجدد يغذيه مخيال صليبي متجدد. وضمن هذا السياق صرّح رئيس أساقفة يورك وويليام طومسون في 1865 بمناسبة انعقاد مؤتمر «صندوق اكتشاف فلسطين» الذي أنشئ للغرض: «أرض فلسطين هذه تنتمي إليكم، إلي أنا، إنها الأساس أرضنا [...] نقصد تلك الأرض المترامية طولاً وعرضاً، لأنها أعطيت لنا».

والواقع أن الاهتمام بأثار الأرض المقدسة قد شهد رواجاً في الغرب، بموجب الارتباط بالعهد القديم والعهد الجديد، وازدادت العناية أيضاً بالأبحاث الأثرية في وادي الرافدين ومصر كلما كانت على صلة بوقائع الكتاب المقدس، حتى تشكلت في كثير من البلدان هيئات



أبحاث أركيولوجيا التوراة عامة، من خلال محاولة كتابة تاريخ المنطقة بدون أرثوذكسية عقديّة متعصبة للتوراة. فمثلا توجهت انتقادات كبرى إلى قصة الطوفان التوراتي الكوني بعد أن تبين أن الرواية التوراتية مستوحاة من رواية جلغامش، وأن طوفان نوح هو مجرد حدث كغيره من الأحداث التي شهدتها المنطقة الشرقية في التاريخ القديم. وأضحت الأسئلة بشأن وجود البطارقة إبراهيم وإسحاق ويعقوب، والتساؤل بشأن أحداث سدوم وعمورة، وحادثة الخروج، واجتياح أريحا وغيرها من القضايا مهجورة بعد الخيبات المتعددة في العثور على قرائن أثرية تدعم تلك المرويات. غدت الإجابات الأثرية الحاسمة عن تلك الأسئلة من صنع آثريين مزيفين أو مشعوذين دخلاء على الحقل، كما يقول إريك كلين، يتلهفون على المال من خلال بيع الأراجيف الأثرية إلى الإعلام. وللأسف تخلق هذه المغالطات خلطا بين العامة وفي أوساط غير المختصين.

فحدث الخروج الذي يحتفي به اليهود في كل عام، في عيد الفصح، لم يثبت بعد أثريا، ولعل واقع الترحال الذي لا يخلف أثارا معتبرة يزيد المسألة تعقيدا. تبدو الرواية التوراتية التي تتحدث عن تدمير المدن الكنعانية، على إثر الخروج، والتي تبناها ألبرايث تعارضها قراءة أخرى ترى الدخول السلمي، لأنه لا أثر للتدمير، وذلك ما ذهب إليه الباحثان الألمانيان ألبريخت آلت ومارتن نوث. فالتخريب الذي تحدث عنه التوراة لا أثر له، وهو ما يضع أركيولوجيا التوراة في مأزق. إذ ما يلاحظ في الأبحاث التوراتية أن ثمة نظرة قومية طاغية في فهم التاريخ اليهودي تتناقض مع واقع التعدد والتنوع، وقد تعززت تلك النظرة القومية جراء البحث عن هوية مميزة لإسرائيل، والحال أن فهم تاريخ فلسطين بمختلف طبقاته وأطواره هو جزء من تاريخ شامل للمشرق العربي.

### • الكتاب: أركيولوجيا التوراة .. مدخل

تمهيدي.

• تأليف: إريك كلين.

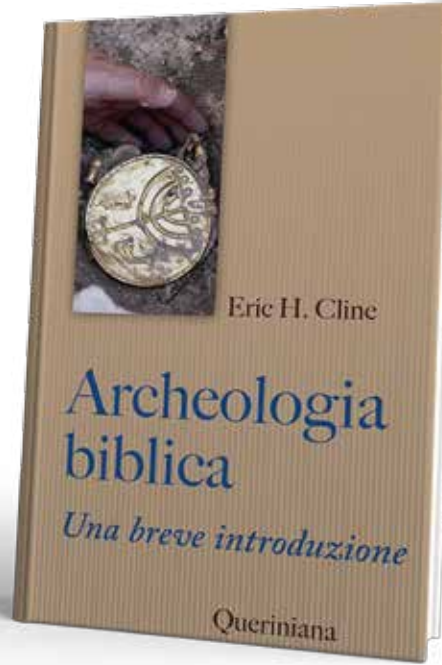
• الناشر: منشورات كويرينيانا (بريشيا)

• باللغة الإيطالية.

• سنة النشر: 2021.

• عدد الصفحات: 192 ص.

\* أكاديمي تونسي مقيم بإيطاليا



التوراتية سوى مع تسعينيات القرن الماضي من خلال نقض المقولات التي طالما سادت في حقل علمي كان يُفترض أن يكون بعيدا عن التجاذبات السياسية. جاء هذا النقض مع مجموعة من الباحثين نذكر من بينهم نيلز بيتر لامش، وتوماس طومسون، وكيث ويتلمان، وفيليب دافيس ممن ذهبوا إلى أن جانبا كبيرا من التوراة العبرية هو من اختلاق كتاب عاشوا في الفترة الفارسية «القرن الخامس قبل الميلاد- والفترة الهلينية» بين القرن الثالث والقرن الأول قبل الميلاد-. وقد ذهب جميع هؤلاء الباحثين إلى أن الحقائق المتضمنة في التوراة قليلة. وقد عرفت تلك المجموعة بـ «مدرسة كوبنهاغن» وإن انضم إليها باحثون آخرون يدرسون في شيفلد في إنجلترا. قام عمل هذه المدرسة على قلب المنهجية التقليدية التي طالما سادت في الأبحاث الأثرية التوراتية، وذلك بالانطلاق من الوقائع التاريخية المستخلصة من اللقى الأثرية وليس من التوراة كما دأب علماء آثار التوراة. وكان نيلز بيتر لامش أبرز من كشف التلاعب والتزييف في الحقل الأثري التوراتي من خلال تزييف النقائش وقلب الحقائق. الواقع أن الفساد قد تسرب إلى حقل علمي مهم، ويات فيه علماء آثار ينعمون برفاهية فنادق الخمسة نجوم ليس لأهمية الأبحاث التي ينجزونها، وإنما للحفاوة التي يتلقونها جراء الخدمة التي يسدونها للمشروع الصهيوني (ص: 69).

وأمام الانتقادات التي توجهت إلى منهج البحث القديم وشح النتائج، فترت همة علماء الآثار التوراتيين في العثور على توافق كتابي أثري وغدا الميل إلى البحث في الحياة اليومية القديمة. إذ باءت جهود الآثريين لخلق ملامح وطن عريق بالفضل. وهو ما دفع إلى نوع من الاتزان في

القول بعبرية لسان النبي موسى (ع) من اليقينيّات، إذ لم تتوفر آثار عبرية مكتوبة تتجاوز القرنين الثامن أو التاسع قبل الميلاد، على أقصى تقدير. وبذلك يتعدّر القول يقينا بعبرية اللسان الموسوي، إذ النصوص العبرية الموجودة الآن، تأتي متأخرة عن الفترة الموسوية، بما يفيد أن العبرية لغة ناشئة عقب دخول بلاد كنعان، أي بعد وفاة النبي موسى. وفي سياق حديث التوراة عن موسى تعرضت إلى مسألة لسانه، جاء في قولها: «قال موسى للرب استمع أيها السيد لست أنا صاحب كلام منذ أمس ولا أول أمس ولا من حين كلمت عبدك. بل أنا ثقيل الضم واللسان... فالآن اذهب وأنا أكون مع فمك وأعلمك ما تتكلم به -الله-...» وقال أليس هارون اللأوي أخاك أنا أعلم انه هو يتكلم، وهو يكلم الشعب عنك وهو يكون فما وأنت تكون له إلهًا -أي سيّدا-... ثم مضى موسى وهارون وجمعا جميع شيوخ بني إسرائيل. فتكلم هارون بجمع الكلام الذي كلم موسى الرب به وصنع الآيات أمام عيون الشعب» (سفر الخروج: ١٠-٣٠). ثمة ما يوحي بأن النبي موسى كان ثنائي اللسان، وبناء على ذلك، خلص بعض الباحثين مثل سهيل ديب وسيد القمني إلى القول بمصرية اللغة التوراتية. وللتوضيح لم تُعرف اللغة العبرية بهذا الاسم إلا بعد السبي البابلي، فقد كانت تُسمى «اللغة اليهودية» كما يظهر في سفر إشعيا ٣٦: ١١، و«لغة كنعان» أيضا كما يظهر في إشعيا ١٩: ١٨.

يقول إريك كلين: «في حقل أركيولوجيا التوراة، تبقى العديد من الوقائع في حاجة إلى الكشف والتوضيح، حتى وإن لم يكن الحقل جديدا، وقد انطلقت الأبحاث بشكل جدي منذ قرن تقريبا... صحيح استهل العمل بإمكانيات بسيطة، ولكن الأمور في الوقت الراهن بلغت توظيف أدوات علمية متطورة». وبالرغم من كل هذه التطورات لا تزال ريبة تحوم حول كثير من المنجزات، إذ يبقى السائد في المخيال العالمي حول المنطقة متأثرا من التوراة أكثر منه من علم الآثار. وفي الواقع ثمة عقدة ينبغي أن يخرج منها علم آثار فلسطين وهو التحرر من رهن التوراة، وهو ما لم يتحقق بعد، بإيجاز لأن العرب لم ينتجوا علما أثريا للمنطقة. ثمة تأويلات كثيرة للقى الأثرية يصعب أن تُبنى على أساسها حقائق تاريخية. وصحيح ثمة جهود بذلت من قبل العلماء، تم فيها توظيف آخر الأدوات العلمية المساعدة، لكن النتائج في العموم هي أقرب إلى الظن منه إلى الحقائق. ومما فاجأ الباحثين في أركيولوجيا التوراة أن نتائج الأبحاث في تاريخ فلسطين أخبرت عن كنعانية الأرض أكثر مما أخبرت عن توراتيتها.

لقد استمرّ الاشتغال على تزييف الحقائق الأثرية في فلسطين ما يناهز القرن، ولم تُجابه المزاعم الأثرية



## دماغ الزواحف حول شعبية خطأ علمي سيباستيان لوميرل

سعيد بوكرامي \*

«إذا كنت عدوانياً خلف مقود سيارتك، فهذا ليس خطأك، لأن دماغ الزواحف هو المسؤول. إذا كنت تخاف من وحش بري، فإن دماغ الزواحف هنا يعبر عن نفسه أيضاً. هذان مثالان على المعتقدات الشائعة بوجود جزء من دماغ الزواحف في دماغنا. اعتقاد هو في أفضل الأحوال خطأ علمي وفي أسوأ الأحوال، حقيقة مزيفة...» (سيباستيان لوميرل).

البحث لديه يميل إلى خلق الجدل والصراع أي من الخلافات العلمية إلى الفضاء. في أوائل العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، ظهرت فجوة واضحة في هذه الأدبيات: كيف يتسخ «ما يعطي تأثيراً وقوة لأفكار معينة» لدرجة تحويله إلى قيمة ثقافية «مبتدلة» أو بديهية؟ من هذا المنظور، يطور سيباستيان لوميرل برنامجاً بحثياً حول البيولوجيا المعاصرة، مركزاً على الاستخدامات الاجتماعية للمعرفة في علم الأحياء (علم الوراثة وعلم الحيوان وعلوم الأعصاب)، من خلال التركيز بشكل خاص على الاستمرارية الاجتماعية للمفاهيم الخاطئة: «لماذا وتحت أي ظروف تبقى بعض المعارف العلمية متداولة رغم تقادمها؟ (ص ٢٠٩). ومن ثم فإن دراسة «دماغ الزواحف» هي مثال نموذجي. الهدف من هذه الدراسة هو تحليل نجاحها الثقافي عبر إعادة بناء الدائرة الاجتماعية الكاملة: منذ تشكل الفكرة في إطار نظرية في علم الأعصاب في الستينيات إلى الترسخ الدائم في وسائل الإعلام والتنمية الذاتية، على الرغم من أنها مبتدلة علمياً.

في تساوق مع هذا الهدف، يسلك المؤلف منهجية تجمع البيانات التي تتكون من ثلاثة مصادر: المحفوظات العلمية للمكتبة الوطنية للطب (NLM) في الولايات المتحدة الأمريكية (بيثيسدا، ماريلاند) (ص ١٦)، (أوروبريس، فاكتيفا) (ص ٤٦-١٤٥) والمشاركة في مؤتمرات التنمية الذاتية في ٢٠١٥-٢٠١٦ (ص ١٨٣ و ٢٠٢). إن منهجية تحليل المحتوى بسيطة وفعالة: إذ تأتي نتيجة ملاحظات للبيانات وتحليلها من خلال «التحقيق» في الاستخدامات الدقيقة لتعبير «دماغ الزواحف» في سياقات الاتصال المختلفة (ص ٧١). تتمثل الفائدة المنهجية لتحليل هذه العملية في تجميع الوظيفة الشعرية للاستعارة في الانتقال من علم الأعصاب إلى الطب (يحدد «دماغ الزواحف» الغرائز والعدوانية) والتاريخ الاجتماعي لاستخدامات الاستعارة من قبل الوسطاء الذين يحققون وظيفة الوساطة (ص ١٠-١٤). وهكذا يعيد التحليل بناء

إلى الثمانينيات، تساءل الكثير من الناس عن مصادر العنف البشري. ثم استبدل بالتفاؤل السائد خلال الفترة السابقة نظرة أكثر مأساوية للحالة البشرية، مصحوبة بمذهب الاختزال البيولوجي والتطوري. وقد عمل ما كلين في هذا السياق المتسم بنقد التنشوية والتشكيك في الفرويدية. وقد ساهم آرثر كويستلر، في وقت مبكر جداً في جعل المفهوم معروفاً، فاستولت عليه تيارات سياسية مختلفة، المتشائمة منها والمتفائلة، فاستنتج منها البعض حتمية الطبيعة البشرية التي لا يمكن إصلاحها، والبعض الآخر شكك في قدرتنا على تعديلها. ومن بعد، أصبحت النظرية مفيدة، بل ومرحبة «لمقاولي الروح المعنوية» وأتباع التنمية الذاتية. ومن هنا تكمن أهمية كتاب سيباستيان لوميرل حول «دماغ الزواحف»، لأنه رغم خطأ النظرية من منظور علمي، إلا أنها مازالت مفهوماً مكتسباً يتم التلاعب به اجتماعياً، مستغلين قابلية المفهوم للتداول والتوظيف بحكم طابعه الاستعاري الغامض.

إذا اعتبر المفهوم خاطئاً مبكراً، وعفا عليه الزمن علمياً، فإن «دماغ الزواحف» رغم ذلك تمتع بحضور هائل، ويحاول هذا الكتاب إعادة تتبع مساره ضمن تحقيق يجمع بين دراسة صياغة المفهوم، وتحليل تداوله أو إعادة تحيينه - من ألفريد كويستلر إلى ميشيل أوفزاي، مروراً بالآن ريسنبي - من طرف الإثنوغرافيا لتوظيفه في بعض الدوائر العلاجية التي تدعو إليه، حتى اليوم، بدعوى ضرورة العيش بشكل أفضل، وضرورة قبول «التمساح» المختبئ في دواخلنا.

لماذا وكيف انتشرت هذه النظرية الخاطئة؟ إن مفهوم «دماغ الزواحف» يجعل من الممكن إعادة النظر في مسألة نشر المعرفة في الثقافة، وبالتالي العلاقة بين العلم والمجتمع.

تهتم دراسات التواصل العلمي بشكل أساسي بنوعين من المجالات: المجالات الأكاديمية التي تنظم التبادل بين العلماء والمجالات الإعلامية التي تنظم التبادل بين الخبراء والجمهور. في كلتا الحالتين، فإن مجال

يعتبر كتاب عالم الاجتماع سيباستيان لوميرل شرحاً وافياً لكيفية شيوع وتكريس نظرية دماغ الزواحف التي تدعي تفسير سلوكياتنا الأولية... على الرغم من طبيعتها الخاطئة. كيف استمر مفهوم دماغ الزواحف في التأثير على المثقفين والإعلام والثقافة الشعبية رغم تقادمه؟ وكيف التقط مفهوم علمي قديم من قبل ممثلين متعددين - فنانين وفلاسفة وصحفيين ومعاهد تنمية ذاتية- ووظف لأغراض إيديولوجية واقتصادية.

يوجه عالم الاجتماع سيباستيان لوميرل هذه الأسئلة من خلال تحقيق مفصل حول «دماغ الزواحف» الذي يعد مثلاً لمفهوم علمي تم تصديره إلى الجسم الاجتماعي، والذي لا يزال غير موثوق به من وجهة نظر علمية، ولا يزال ينتقل من حالة المفهوم إلى الاستعارة الغامضة التي يمكن استعادتها دائماً واستغلالها وفق صيرورة المجتمع وتطوره السلوكي والاجتماعي والثقافي.

كان عالم الأعصاب الأمريكي بول د. ماكلين في مطلع الستينيات أول من اقترح نظرية دماغ الزواحف أو ما يعرف بالدماغ الثلاثي الذي يتكون من العقد القاعدية والجهاز النطاقي، والقشرة المخية الحديثة. ويندرج المفهوم ضمن جزء من نظرية عامة للدماغ تتعلق بجزء قديم جداً من إرثنا التطوري أي مجموعة من التصرفات «الأساسية»: الغريزية، كالدفاع عن المنطقة، والسلوك العدواني وغيرها. في الواقع، وضع بول ماكلين عالم الأعصاب الأمريكي فكرة غريبة تقول بأن هناك تركيباً بدائياً وشرساً في دماغنا يجب علينا أن نحمي أنفسنا منه أو على الأقل أن نحاط منه، كيفما كانت التنمية البشرية والاجتماعية. يوجد هذا الطرح المريب منذ الستينيات، وبقي حتى يومنا هذا، بينما طوى النسيان اسم مخترعه منذ فترة طويلة. نسي لأنه، في حياته، وبعد التقدم السريع، استبعد مفهوم دماغ الزواحف من خلال التقدم العلمي الذي تحقق في علم الأعصاب والدماغ. في الحقيقة لم تُبن النظرية على تجارب صارمة، لأن الفكرة هي قبل كل شيء انعكاس لروح العصر وسياقاته. من الستينيات



وضمن سياق بلاغي يهدف إلى تشكيل طبائع الناس. ومع ذلك، يبدو هذا التصنيف على الفور مصطنعاً. في الواقع، هذه السياقات الثلاثة هي مواقف بلاغية يتم فيها التلاعب بالروح (موقف المتحدث)، والعواطف (تعبئة المشاعر) والمنطق (بنية الجدل بما في ذلك الاستعارات). يشمل الخطاب المواقف الاجتماعية، وأي وضع اجتماعي ينطوي على استخدام أدوات بلاغية.

لذلك لا توجد مخاطرة في «نظرية النص» (ص 218) أو حتى «إزالة السياق» باستخدام أدوات يُنظر إليها على أنها أدوات «أدبية». وهكذا، يبين الفصل الثاني بوضوح الاهتمام بربط استعارة دماغ الزواحف بالأوضاع الخطابية التي تمت دراستها من خلال تحليل التلقي في تاريخ الفلسفة. وبذلك من الممكن أن نذهب أبعد من ذلك في هذا السياق النصي: من جهة، لأن مشكلة الشر وأسئلة اللاهوت قد خضعت لعلم الأحياء منذ القرن السابع عشر (من قبل الديكارتي مالبيراش) مما أدى في القرن التاسع عشر إلى تبني الفكرة المغرصة عن الانحطاط. من جهة أخرى نجد ظهور حركة الإمكانيات البشرية، بحيث يعتبر كويسلر، وسيطاً قوياً لفكرة الإمكانيات الطبيعية للدماغ البشري. يمكن العثور على كل هذه العلاقات المتناسلة على وجه التحديد في مجموعة متنوعة كبيرة من المواقف الاجتماعية.

إن معرفة أفضل بالأدوات الخطابية ومظاهرها البلاغية، وعلم الاجتماع أيضاً، يمكنان المجتمع من التزود بوسائل كفيلة بتحليل الخطاب وتفكيكه وفهم مقاصده. ومع ذلك، فمن غير المجدي السعي إلى نزع العاطفة من خلال المنطق؛ لأن الوضع البلاغي لا يفكك إلا من الداخل. وربما لهذا السبب نجت استعارة «دماغ الزواحف» خاصة والاستعارة بصفة عامة من الزوال أو النقد، واستمرت في التداول والتكريس والاستغلال على المستوى الإعلامي والاقتصادي والسياسي.

• **الكتاب: دماغ الزواحف: حول شعبية**

**خطأ علمي**

• **المؤلف: سيباستيان لوميرل**

• **الناشر: منشورات العلوم السياسية**

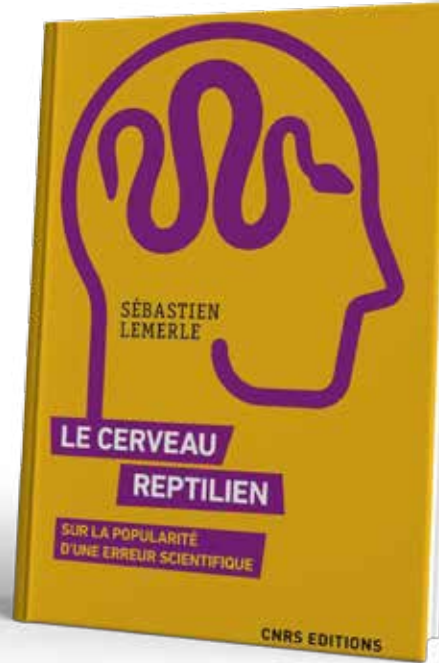
**وعلم الاجتماع. باريس. فرنسا**

• **سنة النشر: 2021**

• **عدد الصفحات: 224ص**

• **اللغة: الفرنسية**

\* **كاتب ومترجم مغربي**



أو الدوافع. هذا الإطار الذي تخصص فيه ميشال أونفراي باستخداماته الجدلية للمجاز في وسائل الإعلام (ص 154-155). لكن سياق التدخلات النفسية والاجتماعية (بما في ذلك التطور الذاتي) هو الذي يحظى بالتداول الشائع، من خلال عكس دلالاته الأخلاقية، وبذلك يفسح التشاؤم الشائع مجالاً فسيحاً للتناؤل العلاجي المصطنع. لهذا السبب يركز الفصل الخامس والأخير على تحليل محتوى الخطاب السائد (التربوي بشكل أساسي) والمتمثل في التدريبات المعاصرة في مجال التنمية الذاتية، ونجده في اثنين من المعاهد الباريسية التي تروج لعلم النفس الإيجابي لمعرفة غرائز المرء والتحكم فيها. هذا الخطاب السلوكي هو في الواقع نسخة جديدة من نظرية «دماغ الزواحف» تم تحيينها وفق الميولات «الواقعية» للفكرة الأولية، وبشكل متناقض ومشكوك فيه تجاه «أبحاث» التحليل النفسي، على وجه الخصوص؛ إذ صارت تروج وتباع وصفات خطابية للهروب من الانزعاج الشخصي وتحرير النفس، ما على المرء إلا أن يتصالح مع نفسه، أي مع جسده، من خلال الإصغاء إلى الحياة الغريزية، وهو مرهون بـ «الديناميات الحيوية» (ص 188). تنطبق هذه المعرفة أيضاً على التسيير والإدارة وطب الأطفال (ص 196-197). يختتم الفصل بالأسباب الثلاثة الرئيسية لشعبية الاستعارة في هذا المجال وهي: إضفاء الشرعية على الخطابات، والامتلاك التربوي للممارسات، ونشر مفهوم العزاء والسلوى: لتغيير الذات بدلاً من تغيير العالم.

تلخص الخاتمة مساهمة التحليل في إبراز أن استعارة «دماغ الزواحف» تعتمد على سياقها: ضمن نظرية محددة، وضمن سياق تعليمي قائم على معرفة الجمهور،

خمس متواليات من عملية تكوين وتلقي مفهوم «دماغ الزواحف».

يهتم الفصل الأول بنشأة الفكرة وتطورها النظري بين عامي 1949 و1970. التي كانت فترة فوران متعدد التخصصات، حيث كان الانتقال من العمل المخبري إلى الممارسة ضعيف التنظيم، لا سيما في مجال الصحة العقلية. وهكذا فإن الطبيب بول د ماكلين (1913-2007) اهتم بفيزيولوجيا العواطف من التجارب على الحيوانات وتجربته السريرية في الطب النفسي. وقد سعى من منظور تطوري إلى استنتاج وجود وحدة دماغية بين الثدييات جميعها. ثم قام بعزل مكون دماغي قديم، أي بدائي، واعتبره المسؤول عن السلوك الغريزية والبدائية لدى الحيوان والإنسان. وفي الستينيات، كانت واحدة من الطبقات الثلاث لمفهومه للدماغ كـ «دوافع» تدعم أبحاثه حول العنف والسلوك المنحرف.

يصف الفصل الثاني الظروف الاجتماعية التي رسخت الفكرة في نظام رمزي يتكون من خلفية مرجعية ثقافية تأسست على صيغ مجازية. أولاً، على المدى الطويل، تعطي فلسفة العقل الكلاسيكية (في العصور القديمة والعصور الوسطى) مكانة سلبية للعواطف. مما يجعل الاستفادة منها عزيزة المنال عكس مؤرخي الفلسفة. ثم إن التحليل النفسي الفرويدي، الذي يربط بين الجنسانية والعدوان، يدعم خطاب القلق في الثقافة البدائية والاستشراقية. وأخيراً، تركز هذه الأنثروبولوجيا المتشائمة على المناقشات المعاصرة في الستينيات والسبعينيات، مثل تلك المتعلقة بالأسرة ونقد التغيير الاجتماعي.

يُكمل الفصل الثالث هذا التحليل لاستخدامات الأنثروبولوجيا المتشائمة بناءً على الظروف الاجتماعية لتقبل الفكرة بين عامي 1960 و1980 في الولايات المتحدة وفرنسا، من خلال دراسة الجدل حول استعداد الإنسان للعنف. بعد ماكلين، فإن وسطاء فكرته كانوا من المتعهدين والأخلاقيين المشهورين في وسائل الإعلام يروجون لـ «الفكر المعقد» ويحشدون الإصدارات التحريرية المتنافسة في المجال السياسي، مثل («اليمين الجديد») مجموعة العشرة): ونذكر منهم كاتب المقالات آرثر كوسلر، وعالم الفلك كارل ساغان و الطبيب النفسي للأطفال بيير دوبراي ريتزن والطبيب العسكري هنري لاجوري وعالم الاجتماع إدغار موران.

يحلل الفصل الرابع كيفية تلقي وسائل الإعلام الفرنسية لنظرية ماكلين ومعلقه في الصحافة والأفلام. يُبين المؤلف بدقة «السلسلة الماكرا لانتقال المفهوم» (ص 131) إلى مبدأ «ولادة الشعور المشترك للزواحف» (ص. 143) بين عامي 1980 و2020. في هذا السياق الصحفي، فإن فكرة «دماغ الزواحف» هي استعارة أخلاقية لغريزة البقاء



## الحروب التجارية هي حروب طبقية مايكل بيتيس وماثيو سي كلاين

محمد السالمي \*

تُفهم النزاعات التجارية عادة على أنها صراعات بين البلدان ذات المصالح الوطنية المتنافسة. كان العالم، قبل الوباء والآن، منقسمًا بسبب النزاع حول التجارة، وأبرزها الصراع المتصاعد بين الولايات المتحدة والصين. ففي كتاب «الحروب التجارية هي حروب طبقية»، يوضح كل من ماثيو سي كلاين ومايكل بيتيس، أن النزاعات الدولية غالبًا ما تكون نتيجة لخيارات سياسية محلية لخدمة مصالح الأثرياء على حساب العمال والمتقاعدين.

ومن ناحية أخرى، ففي البلدان غير المتكافئة، تتراكم مدخرات الأثرياء، وينخفض الاستثمار المحلي، لأن المستهلكين الذين يعانون من ضائقة مالية يجعلون السوق غير جذاب للنمو. وفي نطاق الاقتصاد العالمي المفتوح وغير المنظم إلى حد كبير، يكون المنفذ الوحيد هي الصين، وذلك عبر التصدير أو إغراق فوائضها إلى الخارج. وهذا يسمح للاقتصاد المحلي الصيني بالاستمرار في العمل بكامل طاقته حتى أثناء إيذاء البلدان التي يتم إغراق منتجاتها فيها. مثلًا، إذا قامت دولة بإلقاء فائض إمدادات الحديد الرخيص على دولة أخرى، فإن ذلك من شأنه أن يقوض إنتاج الصلب في البلد المستهدف.

كان لدى ألمانيا نفس الاستجابة السياسية خاصة بعد إعادة التوحيد مع ألمانيا الشرقية السابقة حيث سعت في أوائل العقد الأول من القرن الحادي والعشرين إلى معالجة مشاكل البطالة المرتفعة المزمنة عن طريق خفض أجور العمال وإضعاف شبكة الأمان الاجتماعي. يجادل المسؤولون الألمان بأن هذا أعاد القدرة التنافسية للشركات، وحولها إلى قوى تصدير عملاقة ومحركات لخلق فرص العمل. في المقابل، يروي كلاين وبيتيس قصة مختلفة، أدى هذا التوجه إلى الضغط على العمال وإضعاف الاستهلاك المحلي وزيادة أرباح الشركات، ووضع المزيد من الأموال في أيدي الأثرياء. وتدفق فائض الإنتاج إلى الخارج. كما غادرت مدخرات الأثرياء إلى جنوب أوروبا وساهموا في تضخم الفقاعات المالية. يجادل المؤلفون بأنه لو فعلت ألمانيا المزيد لتعزيز الإنفاق في الداخل، من خلال الاستثمار في البنية التحتية التي تشتد الحاجة إليها، لكان أداء العمال الألمان أفضل بكثير.

تكاملًا في المصالح بين العمال في الولايات المتحدة والصين وبين النخب في الولايات المتحدة والصين ضد العديد من الأشخاص الآخرين في بلادهم. يحاول كلاين وبيتيس إظهار أوجه القصور في العديد من طرق التفكير التقليدية حول التجارة والتمويل العالمي وذلك باستخدام سلسلة طويلة من البيانات. وإشارة إلى الاقتصاديين الكلاسيكيين، مثل آدم سميث وديفيد ريكاردو، فإنهم يرون أن التجارة تحدها المزايا النسبية للبلدان. وأن معظم التدفقات المالية العالمية، مرتبطة بالتمويل المباشر لتبادل السلع والخدمات. وعند رؤيتنا لذلك، فهي صغيرة للغاية في ذلك الوقت مقارنة بحجم الاقتصاد العالمي في الوقت الحاضر. ففي عام 1850 قدر كلاين وبيتيس، القيمة الإجمالية لجميع المطالبات المالية عبر الحدود بحوالي 16% من الناتج المحلي الإجمالي العالمي، بينما تبلغ المطالبات المالية عبر الحدود الآن حوالي 40% من الناتج المحلي الإجمالي العالمي. وتبدو التجارة العالمية اليوم أقل وضوحًا من كونها منفعة اجتماعية. تحدث التدفقات المالية في الوقت الذي يسعى فيه المستثمرون إلى تحقيق عوائد على استثماراتهم، وتشكل الاختلالات التجارية تحت ضغط السيولة المالية الكبيرة. ومن ثم يكافح السياسيون المحليون لتصحيح الاختلالات الاقتصادية المتجذرة داخل بلادهم.

يبدأ التصدع في المنظومة الاقتصادية من خلال توزيع الدخل. فكلما زادت الأسرة ثراء، زاد دخلها الذي تستطيع توفيره. وبالتالي، يمكن للأماكن ذات التوزيعات الثابتة نسبيًا للدخل أن تدعم الكثير من الاستهلاك المحلي، مما يعزز حجم مبيعات الشركات المحلية ويشجعها على زيادة الاستثمار.

يتتبع الكتاب أصول الحروب التجارية التي نشهدها اليوم وذلك من خلال القرارات التي اتخذها السياسيون وكبار رجال الأعمال في الصين وأوروبا والولايات المتحدة على مدار الأعوام الماضية. حيث ازدهر الأثرياء في جميع أنحاء العالم، بينما لم يعد بإمكان العمال شراء ما ينتجون أو فقدوا وظائفهم. في هذا التحدي المثير للتفكير لوجهات النظر السائدة، يقدم المؤلفون سردًا متمسكًا يوضح كيف أن الحروب الطبقية التي ينجم عنها تزايد عدم المساواة تشكل تهديدًا للاقتصاد العالمي والسلام الدولي، وما الذي يمكننا فعله حيال ذلك.

وللتعريف بمؤلفي الكتاب، فماثيو سي كلاين، هو كاتب اقتصادي في Barron's بارونز. كما كتب سابقًا في الفايينشال تايمز وبلومبيرج والإيكونوميست. في المقابل، يشغل مايكل بيتيس منصب أستاذ المالية في جامعة بكين، كما عمل سابقًا كمستشار مالي في الموضوعات المتعلقة بالإدارة المالية لحكومتَي المكسيك وكوريا الجنوبية.

من عنوان الكتاب، يقود الكثير منا إلى الافتراض أن النزاعات التجارية تقودها دول ضد دول أخرى. بينما يشير المؤلفان إلى أن ذلك غير صحيح، بل علينا توجيه تفكيرنا للصراعات الطبقية داخل هذه البلدان. على سبيل المثال، لم تكن سياسات الحكومة الصينية لها تأثير سلبي على العمال الأمريكيين وحسب، بل هي كانت سيئة أيضًا على العمال في الصين. وبعبارة أخرى، بدلاً من التفكير بالصين مقابل الولايات المتحدة، من المفيد جدًا التفكير في الأمر على أنه مجموعة كبيرة من الأشخاص في الصين مقابل مجموعة صغيرة داخل نفس الدولة. ومن نواح عديدة، ينطبق هذا بصورة مماثلة في الولايات المتحدة. ولذلك، يمكن القول إن هناك





رأس المال إلى الخارج. يستخدم المؤلفان الأسس المحاسبية لإثبات وجهة نظرهم. ومع ذلك، فإن الأسس المحاسبية لا تحدد السببية كون العناصر الأخرى ليست ثابتة. على سبيل المثال، تؤدي الزيادة في الإنفاق الحكومي، مع تساوي الأشياء الأخرى إلى زيادة الناتج المحلي الإجمالي، لكن الأشياء الأخرى لا تظل متساوية حيث يمكن خفض الاستهلاك أو الاستثمار أو الصادرات في نفس الوقت.

يقدم المؤلفون حجة مباشرة للغاية مفادها أن الصين يجب أن تخفض صادراتها، والتي تملأ جيوب كبار الحزب الشيوعي والنخبة الصناعية على حساب العمال. كما يجب أن يتحول الاقتصاد بدوره نحو الاستهلاك المحلي من خلال سياسة الأجور الأعلى وشبكة أمان اجتماعي أقوى. كل هذا منطقي، لكن سياسة شبكة الأمان الاجتماعي ذات الأجور المرتفعة معادية للولايات المتحدة المعرضة للعجز التجاري.

قام ماثيو كلاين ومايكل بيتيس بتضمين الكثير في هذا الكتاب وتقديم تحليل رائع ودقيق للقوى المحلية والعالمية التي تشكل الحروب التجارية اليوم. يفتح كتابهم مساحة فكرية قيّمة ويمهد الطريق لنقاش أوسع بكثير. كما حاز الكتاب على استحسان النقاد، وتم تضمينه في قائمة الفايينشال تايمز لهذا العام.

## • تفاصيل الكتاب:

• اسم الكتاب: الحروب التجارية هي

حروب طبقية: كيف يؤدي تزايد عدم

المساواة إلى تشويه الاقتصاد

العالمي وتهديد السلام الدولي

• المؤلف: مايكل بيتيس و ماثيو سي  
كلاين

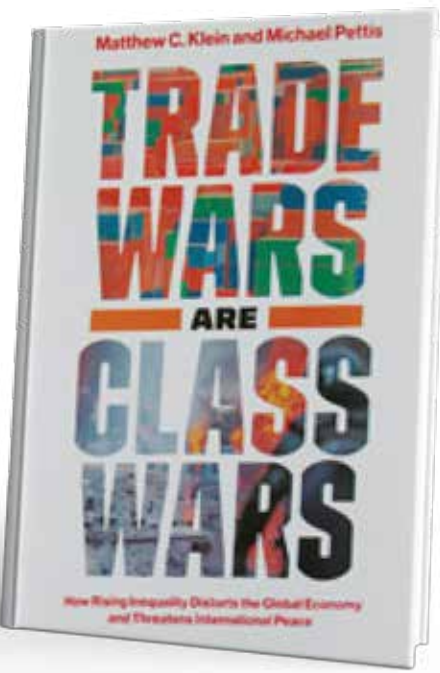
• الناشر: Yale University Press

• سنة النشر: 2020

• اللغة: الإنجليزية

• عدد الصفحات: 288 صفحة

\* كاتب عماني



البلدان الأخرى بالإضافة إلى فائض مدخراتها. وبالتالي، أصبحت الضغوطات التي تفرضها هذه التطورات على الاقتصاد الأمريكي والسياسة الأمريكية واضحة للغاية على مدار الخمسة عشر عامًا الماضية. وإذا لم تتمكن الحكومات من إيجاد طرق لإصلاح النظام النقدي العالمي وتوزيع مكاسب النمو بشكل أكثر إنصافًا، فإن الأزمات المالية والخلافات التجارية اليوم قد تكون مجرد مقدمة لانهايار أكثر عمقًا في المستقبل. كما يشير الكتاب إلى أنه لن يكون من الممكن للواردات أن تحل محل الإنتاج الأمريكي وأن يستمر الأمريكيون في استهلاك تلك الواردات ما لم يكن هناك أيضًا مبلغ مماثل من الديون لتمويل ذلك الإنفاق الذي يزيد عن الدخل.

وفي الختام، يجادل كلاين وبيتيس أنه لإنهاء الحروب التجارية يجب أن نبدأ بإنهاء الحروب الطبقيّة. وهذا يتطلب أنظمة وإصلاحات محلية ودولية. في حين أن القبول بأن إنهاء الاختلالات في التجارة العالمية والنظام المالي يتطلب تنظيمًا محليًا وتعاونًا دوليًا، يبدو أن العلاج المقترح لهما من الصعب تحقيقه ومن المحتمل أن يكون غير فعال.

الفرضية الشاملة للكتاب هي أن تدفقات رأس المال تسهم في التدفقات التجارية. وببساطة، يتطلب العجز التجاري في الولايات المتحدة تدفق رأس المال، بينما يتطلب الفائض التجاري في الصين تدفق

ولربما كانت أزمة منطقة اليورو أقل تدميرًا بكثير. كما يروي المؤلفان قصة مماثلة عن الصين، أدت الأهداف السياسية غير المتوافقة وعجز الحكومة عن معالجة تزايد عدم المساواة إلى فائض تجاري كبير ومستمر، وإلى العديد من الشركاء التجاريين الغاضبين. أنتج النظام المالي في الصين تحويلًا هائلًا ومستدامًا من الشعب الصيني إلى كبار المصنعين ومطوري البنية التحتية ومطوري العقارات والحكومات الإقليمية والبلدية. بلغت قيمة التحويل حوالي 5% من إجمالي الناتج المحلي الصيني سنويًا ابتداءً من عام 2000. مع وفرة هذا المال، ليس من المستغرب أن الكيانات التي تتمتع بامتياز في الحصول على القروض شرعت في فورة استثمارية ضخمة، غالبًا مع القليل من الاهتمام بجودة المشاريع التي تم تمويلها.

ولارباب أن مستويات المعيشة قد ارتفعت بشكل كبير في الصين على مدى العقود القليلة الماضية. من جهة أخرى، يرى المؤلفان أن نموذج التنمية الذي قدمه الحزب الشيوعي ابتداءً من أوائل التسعينيات، أوجد طبقة راسخة من الأشخاص الذين انتهت بهم الأمور إلى الاستفادة بشكل كبير. سواء كانوا من مطوري العقارات أو من المسؤولين الحكوميين أو أنواع أخرى من رجال الأعمال التنفيذيين. فهؤلاء الأشخاص، وبسبب الثروة التي تم جنيها، لديهم حافز قوي للغاية لعدم تغيير النظام. ويؤكد المؤلفان، وعلى عكس التصورات التي لدينا حول كون الصين نوعًا من النظام المركزي للغاية، فهي في الواقع ليست كذلك. ففي الصين، يتم إدارة الكثير من السياسات على المستوى الإقليمي أو شبه المحلي، والمقاطعات هي بحجم الدول الأوروبية، إن لم تكن أكبر. ولذلك، من الصعب نسبيًا أن يحصل هذا التمركز، وبالتالي هناك مقايضات عليهم القيام بها لتوزيع النفوذ. قد يكون لدى السلطة بعض الأولويات والأولويات الأخرى تصبح ثانوية وهذا في كثير من الأحيان يجعل حتى الأشخاص في القمة، يدركون عدم استدامة هذا النموذج.

أما في سياق الولايات المتحدة، فهي حالة شاذة. يفرض الدور العالمي للعملة الأمريكية ضغوطًا شديدة على الدول الأخرى لتجميع الدولار وكذلك الأصول المقومة بالدولار. ونتيجة لذلك، أصبحت الولايات المتحدة أرضًا جاذبة للسلع الفائضة من



## ما بعد نهاية التاريخ سيرجي جلازيف

### فيكتوريا زاريتوفسكايا \*

بعد ثلاثين عاماً من صدور كتاب فرانسيس فوكوياما «نهاية التاريخ» المثير للجدل، أصبح في مدارك الجميع، ومنهم مؤلف الكتاب الذي بين يدينا، أن دعوة فوكوياما لم تتحقق. فبعد انهيار المعسكر الاشتراكي لم يستمر العالم بتوازن القطب الأوح الذي مثلته العولمة الليبرالية فترة طويلة ولم يرم استقراراً على حالته الأحادية، إذ تخطى العالم فعلياً عتبة التغيرات الكبيرة وألغى التصورات الفوكويامية لمستقبل البشرية.

الولايات المتحدة إيقافه بإطلاق العنان لحرب عالمية هجينة. فعلى الرغم من عدم جدوى هذه الحرب، يتزايد العدوان الأمريكي حول العالم جنباً إلى جنب مع المخاطر العالمية التي يتجاوز تهديدها الأسواق العالمية. إن الفوضى تتسع في الولايات المتحدة نفسها، حيث تتطور الأزمة الاقتصادية إلى أزمة اجتماعية سياسية. بالإضافة إلى ذلك، في عام ٢٠٢٠، ووسط تفضي الوباء، طرأ انهيار في رسملة السوق للنظام المالي العالمي - وهو الأعمق منذ انهيار السوق المالية في عام ١٩٢٩، المعروف باسم الكساد الكبير. لم تستطع المؤسسات الرسمية المسؤولة عن التنبؤ الاقتصادي على المستويين الدولي والوطني التنبؤ بهذه الأزمة ولم يحذر منها التيار الرئيسي للفكر الاقتصادي. لقد كان الأمر مفاجئاً مثلما كان انهيار الاتحاد السوفياتي والنظام الاشتراكي مفاجأة للسياسيين وعلماء الاجتماع السوفييت. الخلاصة أن الفوضى المتزايدة في الولايات المتحدة والصعود الواثق لجمهورية الصين الشعبية لا يتوافقان مع الأفكار والتوقعات المعتادة وهنا يتقدم الباحث الروسي برؤيته المستقبلية الخاصة.

الفصل الثاني مخصص للأنظمة المؤسسية في الصين والهند واليابان وكوريا وفيتنام وماليزيا إذ يراها الباحث تشكيلات مركزية جديدة لتنمية الاقتصاد العالمي وضمانة مستقبل مستقر ومزدهر لسكانها، فهي تركز على المصالح العامة لمختلف الفئات الاجتماعية وبناء الشراكة الفعالة بين رجال الأعمال والدولة. العكس منها نجده لدى البلدان التي تصدر عملات عالمية وتطبع جزءاً كبيراً من الأموال للتصدير كما وتدعو إلى حرية حركة رأس المال عبر الحدود؛ في حين تفرض البلدان التي تشهد تطوراً ملحوظاً في ظل النظام العالمي الجديد قيوداً صارمة على تصدير رأس المال، مما يحميها، كما يشير الاقتصادي جلازيف،

أسباب التطور غير المتكافئ وغير التدريجي للاقتصاد وتشرح بشكل مستمر الأزمات الهيكلية والكساد بل وأسباب الحروب العالمية أيضاً. ترتبط هذه الأسباب بحالة الجمود في إعادة إنتاج الأنظمة التقنية والاقتصادية من جهة والاجتماعية والسياسية من جهة أخرى. ويتم تحديد إيقاع الأولى من خلال دورة حياة الصناعات ذات الصلة بالتكنولوجيا. أما الثانية فيتم تحديد إيقاعها عبر ديناميكيات إنتاجية النخبة الحاكمة في البلدان المهيمنة والتي تسعى جاهدة لفرض هيمنتها العالمية والحفاظ عليها في إطار النظام الاقتصادي العالمي الراهن. تتجلى هذه الإيقاعات في موجات الظروف الاقتصادية الطويلة التي تدوم نصف قرن والتي اكتشفها العالم الروسي كوندراطييف، وأيضاً في دورات المئة سنة لتراكم رأس المال وهي من اكتشاف العالم الإيطالي جيوفاني أريجي. كما يخلص جلازيف إلى أن تضافر هذه الإيقاعات يوفر صورة معقدة للتحويلات التكنولوجية والاجتماعية التي تحدث بشكل دوري ومرة كل قرن ومن شيمها أنها تفتح فرصاً جديدة للتنمية. وفي مثل هذه اللحظات المصيرية للوجود البشري من المهم للغاية محاولة النظر إلى ما وراء الأفق المرئي طلباً للتنبؤ بالمخاطر العالمية والسيناريوهات المحتملة وبذل كل ما في الوسع لتحديد التهديدات القاتلة والدخول في مسار مستدام للتنمية الاجتماعية والاقتصادية.

الفصل الأول من الكتاب مكرس لتنبؤات الحد من هيمنة النظام العالمي القائم، حيث يتطور العالم لصالح الأوليغارشية المالية الأمريكية والشركات العابرة للوطنية التي تسيطر عليها. لكن مع بداية الأزمة العالمية التي اندلعت في عام ٢٠٠٨، الأمر الذي لم يكن متوقفاً للفكر الاقتصادي الغربي، بدأ تراجع القوة الأمريكية، وهو ما تحاول النخبة الحاكمة في

فما هي الآفاق التي انفتحت أمام هذه البشرية بعد «نهاية التاريخ» ولا سيما في المجالين الاجتماعي والاقتصادي؟ ما هي بدائل التنمية لدينا في ضوء المستجدات الأخيرة (الأزمة المالية وباء الفيروس التاجي) - حول هذه الأسئلة يدور حديث الأكاديمي والاقتصادي الروسي البارز سيرجي جلازيف في كتابه «ما بعد نهاية التاريخ» الصادر مؤخراً.

لا ينطلق المؤلف في نظرياته من اليوتوبيا بل يحدد بحثه على أسس علمية، اقتصادية في المقام الأول، مشيراً إلى فشل العلوم الحديثة في شرح الأحداث الجارية وتنبؤ تطوراتها المستقبلية وهذا بزعمه عائد إلى أن العلوم الاجتماعية الحديثة تعيش أزمة عميقة بعد أن تخلت عن مبدأ الحقيقة. يقول الكاتب: «إن التحليل العلمي مستلب من قبل المضاربين، والاقتصاد غارق في تبرير التوزيع السائد للدخل والثروة أما علم الاجتماع فيستغل لتعزيز ثقة السلطات بنفسها. لقد تحول التاريخ تماماً إلى خيال غير علمي لتلفيق الأساطير حول الحضارات غير الموجودة وذلك لتبرير أعمال السلطة من قبل النخب المحلية (...) القادة السياسيون لا يستشرفون المستقبل ويقتصرون على حلول المهام التكتيكية الملحة للاحتفاظ بسلطتهم وذلك مع ما يتضمنه هذا من عواقب وخيمة على البلدان والشعوب. اليوم، وأكثر من أي وقت مضى، يتحتم علينا امتلاك الفهم الجوهرى للمجريات الحالية حتى نرى المجالات الواعدة للتنمية الاجتماعية والاقتصادية ومن أجل تحليل النتائج طويلة الأمد لقراراتنا المتخذة» (١٣).

تستند توقعات سيناريو التغيرات المستقبلية، التي يقدمها المؤلف، على النظرية الأساسية للتنمية الاقتصادية طويلة الأمد والتي تنطوي على تبديل الهياكل التكنولوجية والاقتصادية العالمية. يذكرنا المؤلف بأن النظرية هي الوحيدة القادرة على كشف



الإنسانية العالمية التي لا يمكن إلا أن تسبب القلق كما وتحيلنا على مسألة ما بعد الإنسانية. نتذكر في هذا السياق رفض دعاة الإنسانية الحديثة الفكرة المسيحية القائلة بالنقص الأخلاقي للإنسان فأعلنوا أن الإنسان طيب بطبيعته وأن ظروفه الاجتماعية الخارجية غير المواتية تمنعه من إظهار هذه الطبيعة. لذلك، ومن أجل تغيير الإنسان، دعوا إلى تغيير العالم من حولنا كما اهتموا بالجمال الخارجي للإنسان وليس روحه. وهكذا أصبحت الأنتروبولوجيا الإنسانية مصدراً لأفكار ما بعد الإنسانية والتي استمرت في تطوير الأفكار حول تحسين الفرد بوسائل خارجية، متجاوزة إرادته وقيمه الأخلاقية. ولا تعتبر أيديولوجية ما بعد الإنسانية نفسها ملزمة بأي قيود تجاه الثقافة التقليدية فهي تبدأ بإنكار القيم الدينية الخالدة وتنتهي بإنكار الشخص نفسه.

ويشير الكاتب إلى أنه «يتم اليوم تهيئة الظروف للتحويل التدريجي إلى حالة ما بعد الإنسانية. محاولات لإطالة العمر من خلال تقنيات الخلايا وتجديد الأنسجة وزرع الأعضاء والرغبة في استنساخ الأنواع وهوايات تحسين النسل وحالات المتحولين جنسياً، كل ذلك يلاقي تأييداً علنياً أو مضمراً من قبل النخب الحاكمة في بلدان الغرب ما يشهد على انتكاسة في الأخلاق. إن الرقابة الصارمة على ولاء المجتمع شاهد على ظهور وعي ذاتي مؤله لدى الأوليغارشية الرأسمالية. ففي تاريخ البشرية، وخاصة في المجتمع التقليدي، كان تأليه الملوك والديكتاتوريين أمراً شائعاً. لكن، وللمرة الأولى في تاريخ البشرية، لا يحدث تأليه النخب الحاكمة على أسس دينية أو أيديولوجية، بل من منطلق أنانية لا حدود لها؛ أنانية تظهر قدرتها المطلقة على الخروج على القانون المجتمعي» (٧٢). ويخلص الباحث إلى أن الأمر: «يفتح الطريق لولادة جديدة لما بعد الإنسانية البشرية مقرونة بعواقب لا يمكن التنبؤ بها.»

• **الكتاب: ما بعد نهاية التاريخ**

• **المؤلف: سيرغي جلازيف**

• **دار النشر: بروسبيكت / موسكو/ 2021**

• **اللغة: الروسية**

• **عدد الصفحات: 416**

\* أكاديمية ومستعربة روسية



مجالس إدارة هذه الشركات وكلاء أجنب» (٦٨). ولا يجد جلازيف مفراً من هبوط سعر صرف الروبل بسبب التلاعب بالعملة والسوق المالية وخفض قيمة الأصول الروسية من قبل المضاربين الدوليين لتعود الأموال الأمريكية بعدئذ إلى الأسواق من أجل شرائها. ويتوقع المؤلف جولة قادمة لإعادة توزيع الأصول الروسية لصالح رأس المال الأجنبي وتعزيز سيطرته على الاقتصاد الروسي. ومن بين التوقعات للمستقبل القريب، وفقاً لجلازيف، سيأتي عام ٢٠٢٤ بذرورة العدوان الأمريكي على روسيا. ومن المثير للاهتمام أن العام نفسه سيشهد أيضاً التغيير المفترض في الدورة السياسية الروسية فيما يتعلق بالانتخابات الرئاسية القادمة.

لا يتطرق الكتاب للجانب الاقتصادي لتطور مستقبلنا فحسب، بل أيضاً إلى البنية الاجتماعية للمجتمع والتي «سيتم بناؤها لتلبية احتياجات الأوليغارشية الرأسمالية العالمية وستتألف من طبقة متميزة من السياسيين والصحفيين والخبراء والمحامين والممولين الذين يخدمون مصالح الجهاز القمعي لهياكل السلطة وأصحاب الدخول وذلك إلى جانب البريكاريا وهم العمال الذين يمتلكون وظائف مؤقتة أو يعملون بدوام جزئي. وسيشكل الآخرون غالبية السكان ولهذا سيدعم السادة المهيمنون صناعة الترفيه وتجارة المخدرات وإشراك وسائل الإعلام من أجل تحييد طاقتهم الاجتماعية» (٦٨).

وفي تأملاته حول الاقتصاد يتوصل المؤلف إلى القضايا

من تشنجات النظام المالي العالمي. إنهم يسمعون بالاستثمارات الأجنبية دون قيود ويطلقون يدها للعمل وفق قواعد معينة تصد هجمات المضاربة على العملة الوطنية والسوق المالية المحلية. مع ذلك ينبه جلازيف من «أن إعادة إنتاج الرأسمالية، وعلى الرغم من كل القيود المفروضة على دولة الرفاهية، تستمر في زيادة تركيز الثروة والسلطة بأيدي كبار الرأسماليين الذين يتحولون إلى الأوليغارشية العالمية. أما الدول ذات النظام الاقتصادي المتكامل التي تحدد تكديس رأس المال الخاص بما يتوافق مع المصالح العامة والتي تشهد نمواً اقتصادياً فائقاً فلا يمكن إلا أن تستدعي معارضة الأوليغارشية العالمية. إن عدم توافق بلدان النظام المتكامل مع مصالح الأوليغارشية العالمية هي سبب اندلاع الحرب العالمية الهجينة في السنوات الأخيرة» (٣٣) وقد يتحتم علينا انتظار ما هو أشد وأقسى. وفي هذا الصدد يطرح الكاتب الأسئلة التالية عن الأوليغارشية العالمية: ماذا يمكن أن تكون نتيجة انتصارها؟ وما هي آفاق التنمية الاجتماعية والاقتصادية في حالة هزيمتها؟

على الرغم من كل الآمال التي يعقدها الباحث ببلدان الاقتصاد المتكامل، ومن أن الصين والهند وغيرها من الدول الصاعدة تمنع التهام رأس المال الأجنبي لمؤسساتها الإستراتيجية، يرى المؤلف دولاً أخرى قد تشكل مواردها في المستقبل القريب حاوية لرأس المال الأمريكي وتضمن له الحياة لدورة ثانية. من بينها الدول الجديدة التي ظهرت بعد انهيار الاتحاد السوفيتي والتي خضعت لسيطرة الولايات المتحدة نتيجة للثورات الملونة التي اجتاحتها، ومن بينها أيضاً دول الشرق الأوسط وأمريكا اللاتينية وإفريقيا التي تعتمد مالياً على الولايات المتحدة ولديها ثروة وطنية كافية لإعادة توزيعها لصالح الرأس المال الأمريكي ما يمكن أن يمنح هذا الأخير نفساً جديداً.

يؤكد الباحث أن روسيا أيضاً تقع ضمن هذه الدول. ويحذر جلازيف من أنه ومع البقاء على السياسة الاقتصادية الحالية في روسيا، علينا أن نتوقع أنه «في مواجهة الزيادة الحادة في عجز الميزانية ونضوب الاحتياطات ستلجأ الحكومة الروسية وكذلك الشركات الحكومية الكبيرة إلى الاقتراض الخارجي الهائل من البنوك الغربية. وفي مواجهة العقوبات سيطلبون بضمائنات وتعهدات بأسهم الشركات المختصة في التصدير. وحتى الآن يعمل في الكثير من



## مبادئ التعامل مع النظام العالمي المتغير: لماذا تنجح الأمم وتفشل راي داليو

وليد العبري \*

المُستثمر الأسطوري راي داليو، مؤلف «أفضل المبادئ» الأكثر مبيعاً في نيويورك تايمز، الذي أمضى نصف قرن في دراسة الاقتصادات والأسواق العالمية، يدرس في كتابه الجديد «مبادئ التعامل مع النظام العالمي المتغير» أكثر الفترات الاقتصادية والسياسية اضطراباً في التاريخ، للكشف عن سبب هذه الأوقات.

أرانا هذا الكاتب كيف أصبح كل من الهولنديين ثم البريطانيين أغنى وأقوى إمبراطورية احتياطي من العملات، ثم انحدرت بعد ذلك إلى التفاهة النسبية في الدورات التي كانت مدفوعة بعلاقات السبب والنتيجة العالمية الخالدة. ثم رأينا كيف استبدلت الولايات المتحدة بهم كإمبراطورية عالمية مهيمنة تتبع على نطاق واسع نفس الأنماط الدورية النموذجية المدفوعة بنفس علاقات السبب / النتيجة النموذجية. لقد رأينا كيف ارتفعت وانخفضت بعض قواها الرئيسية الثمانية (أي التعليم، والقدرة التنافسية الاقتصادية، وحصص التجارة العالمية والإنتاج)، بينما استمر البعض الآخر في التفوق (الابتكار والتكنولوجيا، ووضع العملة الاحتياطية، ومركز السوق المالي)، ونظرنا في كيفية ظهور عدد من الدوافع الرئيسية الأخرى على سبيل المثال (دورات المال والديون، والثروة / القيم / الدورات السياسية) وما إلى ذلك في الولايات المتحدة.

يحتاج أي شخص يريد أن يكون لديه فهم أساسي للصين إلى معرفة أساسيات تاريخ الصين الذي يبلغ ٤٠٠٠ عام تقريباً، والأنماط العديدة التي تكررت فيه، والمبادئ الخالدة والعالمية التي اكتسبها قادة الصين من دراسة هذه الأنماط، على الرغم من أن الحصول على هذا الفهم الأساسي هو مهمة كبيرة. تاريخ الصين معقد للغاية، وهناك الكثير من الآراء حوله لدرجة أنه لا يوجد مصدر واحد للحقيقة. لا يزال هناك الكثير الذي يتفق عليه الأشخاص ذوو المعرفة، والعديد من العلماء والممارسين، الصينيين وغير الصينيين، الذين لديهم أجزاء قيّمة تجعل محاولة تجميعها معاً - جنباً إلى جنب مع أجزاء أخرى من التاريخ مثل الإحصائيات والقصص المكتوبة - قيمة للغاية. على الرغم من أننا لا نضمن أن وجهات نظرنا حول الصين هي الأفضل التي يمكن تصديقها، إلا أننا نستطيع أن نضمن أنها قد تم تفسيرها جيداً مع بعض الأشخاص الأكثر استنارة في العالم، ويتم تقديمها هنا بطريقة صريحة للغاية.

يعرفون كلا البلدين جيداً، وبالنسبة لي فإن عدم التحدث بصدق عن هذا الوضع سيكلفني احترامي لذاتي». وبشكل أكثر تحديداً، فإن المنظور الذي ينقله لنا هنا داليو، قد تم اكتسابه من ٣٦ عاماً من التفاعل مع الشعب الصيني حول القضايا الصينية والعالمية (معظمها الاقتصاد والأسواق في الصين والعالم). ومن إجراء الكثير من الأبحاث، ومن خلال تجاربه، والتعرف على بعض كبار قادة الصين، بالإضافة إلى التعرف على الاقتصاد والأسواق الصينية، تعلم داليو أيضاً الكثير عن الثقافة الصينية، وكيف تعمل اليوم، وكيف تطورت على مدى آلاف السنين: من مفاهيم كيف يجب أن يتصرف أفراد الأسرة والآخرين مع بعضهم البعض تجاه التفكير الكونفوشيوسي القديم، والتفكير الكونفوشيوسي الجديد، ومن خلال السلالات المختلفة، والقادة الحداثيين للدروس التي توفرها هذه الأحداث حول الكيفية التي يجب أن يقودها القادة، وكيف يجب أن يتبعهم الأتباع. هذه القيم وطرق العمل الصينية النموذجية هي ما تشير إليها عندما نقول «الثقافة الصينية». كما أن هذا الكتاب يدرس صعود وهبوط الإمبراطوريات وعملياتها، من أجل تعلم المبادئ الخالدة والعالمية، حول كيفية صعود وانحدار الإمبراطوريات، على فهم كيف يُفكر الصينيون، ولاسيما قادتهم، الذين تأثروا بشكل كبير بالتاريخ.

هذا الكتاب هو استمرار لنظرتنا إلى الإمبراطوريات الرائدة على مدى ٥٠٠ عام الماضية، بدءاً من الإمبراطوريتين الهولندية والبريطانية، والإمبراطورية الأمريكية. كما أن الكاتب تطرق إلى تاريخ الصين الطويل، إذ يراجع بياجيز تراجعها من السيادة في أوائل القرن التاسع عشر إلى عدم الأهمية في أوائل القرن العشرين، وينظر بعناية أكبر في ظهورها الأخير من عدم الأهمية إلى شبه قابليتها للمقارنة مع الإمبراطورية الرائدة في العالم اليوم، ومن المحتمل أن تصبح أقوى إمبراطورية في العالم في غضون سنوات قليلة في المستقبل.

قبل بضع سنوات، لاحظ راي داليو الالتقاء الظروف السياسية والاقتصادية التي لم يُواجهها من قبل. تضمنت ديوناً ضخمة وأسعار فائدة صفرية، أو قريبة من الصفر أدت إلى طباعة ضخمة للنفود في العملات الاحتياطية الرئيسية الثلاث في العالم؛ صراعات سياسية واجتماعية كبيرة داخل البلدان، ولاسيما الولايات المتحدة، بسبب أكبر التفاوتات في الثروة والسياسة والقيم منذ أكثر من ١٠٠ عام؛ وصعود قوة عالمية (الصين) لتحدي القوة العالمية الحالية (الولايات المتحدة)، والنظام العالمي الحالي. كانت آخر مرة حدث فيها هذا الالتقاء بين عامي ١٩٣٠ و١٩٤٥. دفع هذا الإدراك داليو إلى البحث عن الأنماط المتكررة وعلاقات السبب / النتيجة الكامنة وراء جميع التغييرات الرئيسية في الثروة والسلطة على مدى ٥٠٠ عام ماضية.

في هذه الإضافة الرائعة وفي الوقت المناسب لسلسلة المبادئ الخاصة به، يجلب داليو القراء لدراسته للإمبراطوريات الكبرى - بما في ذلك الإمبراطوريات البريطانية والفرنسية والأمريكية - واضعاً في الاعتبار «الدورة الكبيرة» التي قادت نجاحات وإخفاقات جميع دول العالم الرئيسية عبر التاريخ. يكشف عن القوى الخالدة والعالمية الكامنة وراء هذه التحولات ويستخدمها للنظر في المستقبل، مقدماً مبادئ عملية لتهيئة نفسه لما هو في المستقبل.

يقول داليو: «أخبرني العديد من الأشخاص أنه من الخطر بالنسبة لي أن أكتب هذا الكتاب؛ لأن الولايات المتحدة في نوع من الحرب مع الصين والعواطف تتصاعد، لذلك سيغضب الكثير من الأمريكيين مني عندما أقول أشياء تكميلية عن الصين، وسوف يغضب الصينيون مني عندما أقول أشياء انتقادية عن الصين، فالكثير من الناس من كلا الجانبين الذين يختلفون مع شيء أقوله سيغضبون مني لقولي ذلك، وسيشوه الكثير في وسائل الإعلام ما أقوله. ومع ذلك، لا يمكنني التحدث بصراحة خوفاً من الانتقام لأن العلاقة بين الولايات المتحدة والصين مهمة للغاية ومثيرة للجدل لدرجة أنه لا يمكن تركها دون أن يمسه الأشخاص الذين



كما ذكرنا سابقاً، تتطور على مدى فترات زمنية طويلة لأننا نتعلم القيام بالأشياء بشكل أفضل، مما يزيد من إنتاجيتنا. على المدى الطويل، هذه هي القوة الأكثر أهمية، على الرغم من أن التآرجحات حول هذا الاتجاه السعودي، هي الأكثر أهمية على المدى القصير.

منذ الثورة الصناعية، كنا نعمل في نظام تأتي فيه الثروة والسلطة بشكل أساسي أكثر من الجمع بين التعليم والإبداع والرأسمالية، مع أولئك الذين يديرون الحكومات يعملون مع هؤلاء الذين يسيطرون على معظم الثروة والتعليم. بينما في النصف الأول من القرن العشرين، كانت هناك انحرافات عن الرأسمالية نحو الشيوعية (التي أظهرت في السنوات ما بين ١٩٥٠ و ١٩٩٠ أنها لم تنجح في الأشكال التي تم تجربتها) والاشتراكية (التي هي في الأساس ثروة هجينة). ونظام توزيع الفرص الذي يمكن للناس مناقشة مزاياه)، كانت صيغة النجاح عبارة عن نظام يأتي فيه المتعلمون بالابتكارات، ويتلقون التمويل من خلال أسواق رأس المال، ويمتلكون الوسائل التي يتم من خلالها تحويل ابتكاراتهم إلى إنتاج وتخصيص الموارد، مما يتيح لها أن تكافأ بجني الأرباح.

يحدث هذا بشكل أفضل في الرأسمالية والأنظمة الحكومية التي تعمل بشكل تكافلي معها. في الوقت نفسه، يستمر تطور كيفية حدوث ذلك. على سبيل المثال، بينما كانت الأراضي الزراعية والإنتاج الزراعي في الماضي تستحق أكثر من غيرها، وتطور ذلك إلى آلات وما أنتجوه يستحق أكثر من ذلك، فإن الأشياء الرقمية التي ليس لها وجود مادي واضح (معالجة البيانات والمعلومات) تتطور لتصبح أكثر قيمة. سيؤدي ذلك إلى نشوب معركة حول من يحصل على البيانات، وكيفية استخدامها للحصول على الثروة والسلطة. النقطة الرئيسية التي حاول المؤلف تجاوزها هي أن أعظم قوة تنتج هذه الاتجاهات الصاعدة في مستويات المعيشة هي قدرة البشرية على التكيف والتحسين، لدرجة أن الحركات حول هذا الاتجاه السعودي الناتجة عن كل شيء آخر لا تظهر حتى عندما ينظر المرء إلى ما يحدث من المستوى الأعلى من أجل الحصول على منظور أكبر للصورة.

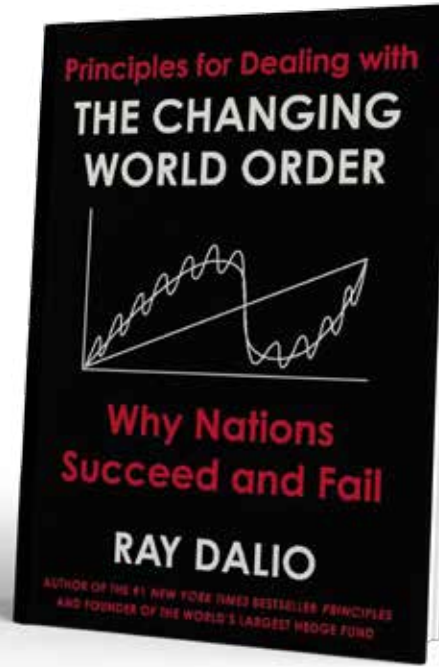
**اسم الكتاب: مبادئ التعامل مع النظام العالمي المتغير: لماذا تنجح الأمم وتفشل**

**المؤلف: راي داليو**

**سنة النشر: 2021م**

**دار النشر: ترقية الدماغ للنشر والتوزيع**

\* كاتب عُمانى



وأخلاقيات العمل، والأنظمة الاقتصادية لتحويل الأفكار إلى مخرجات. هذه الأسباب مهمة لواقعي السياسات لفهمها من أجل تحقيق أفضل النتائج الممكنة لبلدانهم، وللمستثمرين والشركات لفهمها من أجل تحديد أفضل الاستثمارات طويلة الأجل.

ولكن على الرغم من أهميتها، فإن هذه الدروس المستفادة وتحسينات الإنتاجية متغيرة، لذا فهي ليست السبب في حدوث تحولات كبيرة فيمن يمتلك ما هي الثروة والسلطة. إنها ناتجة عن عدد من القوى، أهمها دورات المال والائتمان. لقد حدد داليو ١٧ قوة مهمة. تظهر هذه القوى الكبيرة بشكل عام في دورات كلاسيكية يعزز بعضها البعض بطرق تميل إلى إنشاء دورة واحدة كبيرة جدا من الصعود والهبوط. هذه الدورة النموذجية الكبيرة تحكم صعود وانحدار الإمبراطوريات، وتؤثر على كل شيء يتعلق بها، بما في ذلك عملاتها وأسواقها. كما هو الحال مع دورة الديون النموذجية، التي حددتها في مبادئ التعامل مع أزمت الديون الكبيرة، تمثل هذه الدورة الكبيرة الدورة النموذجية التي يمكننا مقارنة الآخرين بها، بما في ذلك الدورة التي نحن فيها الآن.

من بين القوى السبعة عشرة، تعتبر دورة الديون، ودورة المال والائتمان، ودورة فجوة الثروة، والدورة الجيوسياسية العالمية، هي الأكثر أهمية لفهمها من أجل وضع ما نحن فيه في المنظور الصحيح. لأسباب موضحة في هذا الكتاب، أعتقد أننا نشهد الآن تحولا كبيرا نموذجيا في الثروة والقوة النسبية والنظام العالمي الذي سيؤثر على الجميع في كل البلدان بطرق عميقة. هذا التحول الكبير في الثروة والسلطة ليس واضحا لأن معظم الناس ليس لديهم أنماط التاريخ في أذهانهم لرؤية هذا على أنه «واحد آخر من هؤلاء».

يعتقد داليو أن الأوقات القادمة ستكون مختلفة جذريا عن الأوقات التي عشناها حتى الآن في حياتنا، على الرغم من أنها مماثلة للعديد من الأوقات الأخرى في التاريخ. ومنذ حوالي سنتين أجرى داليو دراسة عن صعود وانحدار الإمبراطوريات، وعملاتها الاحتياطية وأسواقها، مدفوعة برؤية عدد من التطورات غير العادية التي لم تحدث من قبل، ولكن داليو يعرف أنها حدثت مرات عديدة في التاريخ. إن التقاء الأحداث كان نموذجيا للفترات التي كانت موجودة تقريبا كمراحل انتقالية من ١٠ إلى ٢٠ عاما بين الدورات الاقتصادية والسياسية الكبيرة التي حدثت على مدى سنوات عديدة (على سبيل المثال، ٥٠-١٠٠ سنة). كانت هذه الدورات الكبيرة تتألف من تقلبات بين (١) فترات سعيدة ومزدهرة حيث يتم السعي وراء الثروة وخلقها بشكل منتج، ويعمل أصحاب القوة بانسجام لتسهيل ذلك (٢) فترات بائسة ومحبطة حيث تدور معارك على الثروة والسلطة تعطل الانسجام والإنتاجية وأحيانا تؤدي إلى ثورات / حروب. كانت هذه الفترات السيئة مثل عواصف التطهير التي تخلصت من الضعف والتجاوزات، مثل الديون الزائدة، وأعدت الأساسيات إلى أسس أسلم، وإن كان ذلك مؤلماً. لقد تسببوا في النهاية في كيفيات جعلت الكل أقوى، على الرغم من أنهم غيروا عادة من كان في القمة والنظام العالمي السائد.

هذا الكتاب هو دراسة لكيفية ظهور الثروة والسلطة واختفائهما في القوى الرائدة في العالم. لكي نكون واضحين، في حين أن القوى الرئيسية التي تم تناولها في هذه الدراسة كانت الأغنى والأقوى، لم تكن بالضرورة الدول الأفضل حالا لسببين. أولاً، في حين أن الثروة والسلطة هما ما يريده معظم الناس وسيحاربون من أجله، فإن بعض الناس ودولهم لا يعتقدون أن هذه الأشياء هي الأكثر أهمية، ولن يفكروا في القتال عليها. على سبيل المثال، يعتقد البعض أن التمتع بالسلام والاستمتاع بالحياة أكثر أهمية من امتلاك الكثير من الثروة والقوة، ولن يفكروا في القتال بقوة كافية لكسب ما يكفي من الثروة والقوة لجعله ضمن المجموعة المدرجة في هذه الدراسة. ثانياً، تستثني هذه المجموعة من البلدان ما سنطلق عليه «البلدان الصغيرة» (مثل سويسرا وسنغافورة) التي حصلت على درجة عالية جدا من حيث الثروة ومستويات المعيشة، ولكنها ليست كبيرة بما يكفي لتصبح واحدة من أكبر الإمبراطوريات.

تعد الإنتاجية البشرية أهم قوة في التسبب في ارتفاع إجمالي الثروة والقوة ومستويات المعيشة في العالم بمرور الوقت. لقد تحسنت الإنتاجية - أي الناتج الفردي، مدفوعا بالتعلم والبناء والابتكار - بشكل مطرد بمرور الوقت؛ لأن التعلم يكتسب أكثر من الضياع. ومع ذلك، فقد ارتفعت بمعدلات مختلفة لأشخاص مختلفين، على الرغم من ذلك دائما للأسباب نفسها - بسبب جودة تعليم الناس، والابتكار،



## تاريخ علم الاجتماع في ألمانيا ستيغان موبوس

### علي الرواحي \*

يتناول الألماني ستيغان موبوس، أستاذ النظرية الاجتماعية وتاريخ الأفكار، في كتابه هذا تاريخ علم الاجتماع في ألمانيا منذ أواخر القرن التاسع عشر إلى يومنا هذا. بداية من علم الاجتماع في الرايخ الألماني، وعمليات إضفاء الطابع المؤسسي في جمهورية فايمار، والصدمة العميقة التي سببتها الاشتراكية القومية، حيث يركز هذا العمل بشكل خاص على الفترة التي تلت عام 1945م.

جمهورية ألمانيا الديمقراطية حتى الستينيات، ولم يكن قادراً على التطور بنفس الطريقة كما في ألمانيا الغربية، ليس فقط لأنه طغت عليه الفلسفة الماركسية اللينينية والاقتصاد السياسي، ولكن أيضاً لأنه كان في خدمة السياسة الاقتصادية؛ حيث عزز الارتباط بالسياسات الاقتصادية، والمادية التاريخية **historical materialism** الميل إلى الاختزال الاقتصادي في علم اجتماع ألمانيا الشرقية، عندما كان من غير الممكن وصف العمليات والديناميكيات الاجتماعية بشكل مناسب ضمن الإطار الأيديولوجي التقليدي، وحدث بعض التغييرات، كما يمكن ملاحظتها في الثمانينيات.

ويظهر الفصل السادس أثر سقوط جدار برلين وإعادة توحيد ألمانيا على تطور علم الاجتماع في التسعينيات. حيث عزز انتصار المجتمع الرأسمالي نظريات العولة وعودة قصيرة لنظرية التحدي، ولكن مع تغير النظام ظهرت مشاكل اجتماعية حادة، فمنذ منتصف التسعينيات، انتقلت النظريات والمشاريع البحثية التي تركز على الإقصاء الاجتماعي والعمل غير المستقر وكرهية الأجانب أكثر فأكثر إلى مركز التفكير الاجتماعي. بالإضافة إلى ذلك، كان هناك ازدهار في دراسات النوع الاجتماعي ومختلف المجالات الفرعية للدراسات الثقافية، وكان مشهد النظريات الاجتماعية في ألمانيا يتغير: ففي حين كانت النظريات الكبرى سائدة في الوقت الحاضر يمكننا ملاحظة اتجاه نحو التشخيصات الاجتماعية المختلفة بسرعة للمجتمع المعاصر.

تعود بداية التفكير الاجتماعي في ألمانيا إلى منتصف القرن التاسع عشر. حتى ذلك الحين، كان المجتمع يُفهم في المقام الأول في إطار نظرية العقد الاجتماعي كما هي عند توماس هوبز، وجون لوك، أي كشيء يجب بناؤه. حوالي عام 1850م، نشأت فكرة توصيف «المجتمع» على نطاق أوسع على أنه النظام الاجتماعي المكون من التعايش البشري». كان هذا التحول المفاهيمي ناتجاً عن العمليات الاجتماعية والمشكلات المشابهة لتلك التي سهلت ظهور علم الاجتماع في إنجلترا (التي بدأها هربرت سبنسر 1820-1903) وفي فرنسا (بدأها هنري دي سان سيمون (1760-1825) وأوغست كونت (1798-1857)). كانت هذه العمليات والمشاكل هي: الانتقال من العصر الإقطاعي إلى المجتمع البورجوازي، والتصنيع والتكثيف الشديد لتقسيم العمل، وظهور الطبقات الاجتماعية داخل النظام الاقتصادي الرأسمالي، وما يسمى بالمسألة الاجتماعية (soziale Frage) التي نتجت عن التوترات بين الطبقات الاجتماعية. كما أظهرت هذه التطورات أن «المجتمع» لم يعد من الممكن اعتباره اتحاداً مختاراً بحرية لأفراد مستقلين، ولكن كان لابد من اعتباره كيانه منظماً يحدده الاقتصاد إلى حد كبير،

الذي تشغله النظريات والأساليب والخلافات والأفكار في الخطاب الاجتماعي، وما الدور الذي تلعبه التقنيات وعلاقات القوة؟ بناءً على المنهجية الموضحة أعلاه، يبدأ كل فصل بسياق تاريخي، تُوصف فيه العمليات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية المركزية للتاريخ الألماني. حيث يناقش الفصل الثاني بدايات علم الاجتماع في ألمانيا، والتعامل مع الرواد، والمنظمات المهنية الأولى، والخلافات المبكرة. كما يعرض هذا الفصل أيضاً فترة ما بين الحربين العالميتين، عندما تأسس علم الاجتماع في الجامعات، وسنوات الاشتراكية الوطنية، التي أنهت علم الاجتماع كنظام مؤسسي.

في حين يركز الفصل الثالث على العقدين التاليين لعام 1945م، فترة «مجتمع ما بعد الحرب»، بعد الحرب العالمية الثانية (1945-1967)، حيث كانت ألمانيا تمر بعملية تغيير عميقة تماماً. فمثل المجتمع ككل، كان لابد من إعادة بناء علم الاجتماع عن طريق إعادة صياغة المجالات أو تأسيسها حديثاً، فتم استعادة الجمعية الألمانية لعلم الاجتماع وأعيد تأسيس علم الاجتماع كموضوع جامعي. كما ظهرت «مدارس» مختلفة ومراكز إقليمية لعلم الاجتماع بحلول نهاية الخمسينيات من القرن الماضي، حيث يمكن ملاحظة تغيير مؤسسي الأجيال، حيث تولّى جيل ما بعد الحرب، مناصب مركزية في المنظمات ومجالس تحرير المجلات والجامعات.

كما يناقش الفصل الرابع الصعود والهبوط في علم الاجتماع من عام 1968م إلى عام 1990م. وقد سلطت الحركة الطلابية الضوء على علم الاجتماع، حيث أصبحت بعض «المدارس» السوسولوجية مرتبطة به ارتباطاً وثيقاً كموضوع جامعي، الأمر الذي أكسب علم الاجتماع أهمية كبيرة مرتبطة بالحاجة المتزايدة للتفكير الاجتماعي في جميع مجالات الحياة. كانت السمة المميزة لعلم الاجتماع في هذه الفترة هي التمايز المتزايد في الحقول الفرعية المتخصصة، حيث زاد عدد المناصب الأكاديمية لعلماء الاجتماع وعدد الطلاب، جزئياً نتيجة لتأسيس جامعات جديدة وإصلاحات في سياسة التعليم العالي؛ فالعدد المتزايد من مؤسسات البحث غير الجامعية يكمل البحث الاجتماعي في الجامعات. هذا التوسع، الذي ترافق مع علم اجتماع عام مرئي للغاية، أدى أيضاً إلى حركات مضادة وتأثيرات معادية لعلم الاجتماع. في هذا السياق، تلاشت «نشوة التخطيط» في الستينيات والسبعينيات، ونظر الكثيرون إلى عام 1968م بخيبة أمل وابتعدوا عن علم الاجتماع. تغير هذا قليلاً في ثمانينيات القرن الماضي، وهو عصر ازدهار نظريات علم الاجتماع في ألمانيا.

يلقي الفصل الخامس نظرة سريعة على علم الاجتماع في جمهورية ألمانيا الديمقراطية، حيث لم يظهر علم اجتماع

كما يقدم الدورات الفكرية والمؤسسية، واتجاهات علم الاجتماع في ألمانيا في سياقها الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية. ومع ذلك، لا يُقدم هذا الكتاب سوى نبذة مختصرة عن تاريخ علم الاجتماع في ألمانيا. نظراً للتقاليد الطويلة والمعقدة والمؤثرة للغاية لعلم الاجتماع في ألمانيا، فقد يتطلب الأمر في الواقع مشروعاً طويلاً بمجلدات كثيرة. لذلك، يقدم هذا الكتاب نظرة عامة تمهيدية تتعامل مع أهم إشارات التطور المؤسسي، والجهات الفاعلة، والنظريات، وأساليب علم اجتماع ما بعد الحرب في ألمانيا. تنقسم مثل هذه التحليلات في هذا العمل وغيره من الأعمال المهمة بعلم الاجتماع إلى ثلاثة أبعاد رئيسية للبحث في تاريخ علم المجتمع الاجتماعي: البعد المعرفي **cognitive**، والبعد الاجتماعي، والبعد تاريخ التأثير والخطاب. يشتمل الإطار العام للبحث في تاريخ علم الاجتماع أولاً وقبل كل شيء على وضع السياق، من خلال الإشارة إلى الواقع التاريخي والتاريخ الاجتماعي، والأفكار والنظريات والأساليب والأدوات والمؤسسات والجهات الفاعلة وتاريخ التأثير المراد تحليله. بمعنى آخر، يجب النظر إلى موضوع البحث في السياق الأوسع للعمليات المجتمعية (الاقتصادية، والسياسية، والاجتماعية، والثقافية) في وقت ظهورها. حيث يهدف هذا التأطير إلى تفسير حقيقة أن الأفكار لا تظهر في فراغ تاريخي واجتماعي ولكنها تقع ضمن سياق تاريخي واجتماعي.

في كل الأحوال يفهم علم الاجتماع باعتباره استجابة حديثة محددة للمشاكل والأزمات الاجتماعية، وبالتالي طريقة علمية وفكرية لإدراك المشكلات الاجتماعية وتفسيرها وحلها. وفقاً لذلك، فإن دراسة تاريخ علم الاجتماع أو الأفكار يجب أن تأخذ المجتمع المعاصر في الاعتبار كنقطة مرجعية أساسية للأهمية الملموسة للأفكار الاجتماعية.

يتألف البعد المعرفي، باعتباره المستوى الأول من التحليل، من الكشف عن السياقات التاريخية للبحث وفي تحليل الأفكار والنماذج المعاصرة والنظريات والأساليب والبحوث التجريبية والخطابات التي تتضمن تطوير وتوفير الخلفية لما يشكل التفكير الاجتماعي. يتبع البحث في البعد المعرفي دراسة البعد الاجتماعي. في البعد الاجتماعي، يميز بين تحليل الفاعلين وتحليل العمليات المؤسسية. كما يمكن أن تشمل التحليلات إضفاء الطابع المؤسسي على عدة مستويات: تكوين المجموعات، أو النُخب، أو المدارس الفكرية، أو المجالات المتخصصة، أو المنظمات المهنية. أخيراً، تذهب التحليلات على مستوى تاريخ التأثير والخطاب عن كيفية دخول المعرفة الاجتماعية إلى الخطاب الاجتماعي واستخدامها فيه، حيث تُطرح الكثير من الأسئلة في هذا السياق، مثل: ما الموقف



و هاينريش ريكتر Heinrich Rickert (1863-1936)، والكانطيين الجدد Neo Kantianism. ولكن أيضاً على فريدريك نيتشه، وفيلهلم ديلتاي Wilhelm Dilthey، الذي نشر عام 1883م، مقدمة في العلوم الإنسانية. في هذه الأطروحة، شدد ديلتاي على الاختلافات بين العلوم الإنسانية (Geisteswissenschaften) والعلوم الطبيعية (Naturwissenschaften). بينما تسعى العلوم الطبيعية جاهدة لاكتشاف العلاقات السببية التي تسمح بتفسير الظواهر الطبيعية، تحاول العلوم الإنسانية والاجتماعية إعادة بناء المعاني التي تسمح بفهم الظواهر الثقافية. بطريقة ما، استحوذ نهج ديلتاي على روح العصر، حيث كان الشاغل الرئيسي في تلك الأيام هو كيفية تفسير وفهم التغييرات الاجتماعية الدرامية والمنتشرة (بدلاً من تفسيرها). بمعنى ما، كانت بداية علم الاجتماع في ألمانيا، مع زيميل وماكس فيبر، «مناهضة لعلم الاجتماع»؛ لأنها كانت مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بانتقادات نيتشه وديلتاي لعلم الاجتماع الفرنسي والإنجليزي.

في هذا السياق، كان ماكس فيبر على وجه الخصوص هو الذي روج لتشكيل علم الاجتماع كنظام مستقل من خلال محاولة التوسط بين النهجين المتعارضين تجاه التحقيق والشرح والفهم. وبناءً على ذلك، فقد عرّف علم الاجتماع على أنه مشروع يهدف إلى الجمع بين الفهم والشرح: «علم الاجتماع - يقول فيبر - يجب أن يعني: العلم الذي يسعى لفهم وتأييل الفعل الاجتماعي من أجل الوصول إلى تفسير سببي لمساره وتأثيراته». علاوة على ذلك، كان فيبر هو من دافع بقوة عن فهم جديد للعلم والمنهج الدراسية بشكل عام. كما جادل فيبر في محاضراته الشهيرة «العلم كمهنة» ("Wissenschaft als Beruf")، بأن البحث يتطلب الوفاء الصارم بالواجب والمتخصصين في النقد الذاتي، كما يقول فيبر إن علماء الاجتماع يتعين عليهم الامتناع عن أي «نبوءة أكاديمية»، أي ادعاء أنه قائد روحي أو نبي أو مخلص. كما على العالم أن يكرس نفسه للقضية، أي لا ينبغي له الانغماس في الإثارة أو عبادة الذات.

ختاماً، يُسلط هذا العمل الضوء على العلاقة الوثيقة بين العلوم المختلفة من ناحية، وأهمية وجود دراسات مستقلة وغير منطوية تحت المؤسسات الرسمية للدولة من جهة؛ لدراسة الظواهر التي تمر بها المجتمعات التي تشهد تحولات شبه حتمية في مساراتها المختلفة؛ لأن هذه الدراسات كفيلاً بالكشف عن كيفية التعامل مع المستجدات بطرق منهجية رصينة، بعيداً عن الانفعالات البشرية المختلفة.

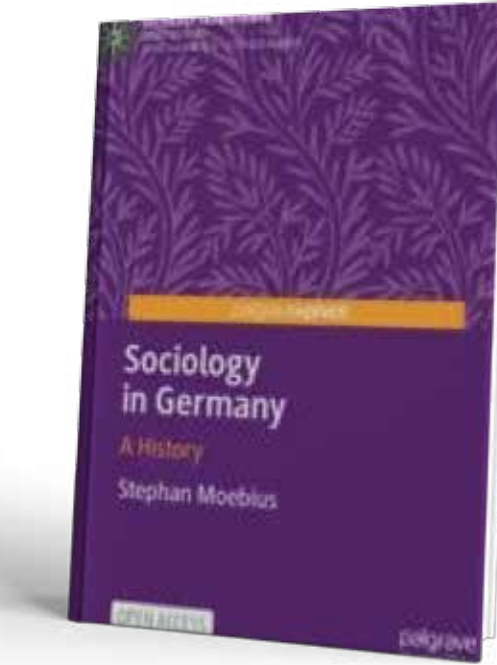
## • الكتاب : تاريخ علم الاجتماع في ألمانيا

• المؤلف : ستيفان موبوس Stephan Moebius

• 2021م. Palgrave Macmillan الناشر:

• عدد الصفحات: 233.

\* كاتب عُمانى



Georg Simmel) وإلى نمو صناعة الإعلان. عموماً، يتركز منطق الإنتاج الثقافي بشكل متزايد على الترفيه، وذلك مع نمو الطبقة الاجتماعية للموظفين الذين يتقاضون رواتب جيدة أدت لظهور جمهور جديد لهذه الثقافة الجماهيرية. في الوقت نفسه، كان النقد الثقافي والاجتماعي في ازدياد أيضاً، كما يتضح من فلسفة فريدريك نيتشه (1844-1900م)، ومسرحيات جيرهارت هوبتمان (1862-1946م)، وهينريش مان (1871-1950) وظهور بعض الروايات، والمجلات الساخرة. ف فيما بين عامي 1871 و1918م، ظهرت العديد من الحركات الطبيعية الجديدة في الفنون والموسيقى والأدب والهندسة المعمارية، وغالباً ما كانت متناقضة مع بعضها البعض، مثل الانطباعية والتعبيرية والمستقبلية أو الموسيقى اللاإرادية.

كل هذه التطورات - كما يذهب المؤلف - حطمت بشدة اليقينيّات القديمة و مخططات الفهم، والفكر، والعمل البدئية. كما أدت الوتيرة السريعة للتغير الاجتماعي، الذي يتركز بشكل كبير في المدن الكبيرة، إلى أن يعاني الكثير من الناس من نوع من الحمل العاطفي والإدراكي على المستوى العام، حيث أدت هذه «الزيادة في الحياة العصبية» التي وصفها جورج سيميل (1895-1950)، ص 116) في مقالته الشهيرة عام 1903م بعنوان «المدنية والحياة العقلية» 'The Metropolis and Mental Life'، كان ينظر إليها من قبل المثقفين والعلماء البرجوازيين على أنها «اجتماعية» أكثر من كونها «أزمة ثقافية» عميقة. ومن ثم، فإن المجتمع الألماني، في نظرهم، لم يكن مضطراً فقط للتعامل مع المسألة «الاجتماعية» ولكن أيضاً - وربما أكثر من ذلك - مع «المسألة الثقافية».

من الفصول المهمة في هذا العمل، الحديث عن العلاقة الوثيقة في علم الاجتماع بين الشرح والفهم، والتي تعتبر من سمات علم الاجتماع في ألمانيا، حيث أنه متأثر بعمق بالفلسفة. كان هذا هو الحال بالفعل مع مؤسسي علم الاجتماع. تأثر كل من هوبز وأرثر شوبنهاور (1788-1860م) بعمل تونيز. Tönnies لم يكن التأثير المركزي على زيميل وماكس فيبر فقط في كتاب ويلهلم ويندلبان (1848-1915) Wilhelm Windelband

وديناميكيات «شكلتها الحدود السياسية» بشكل متزايد. بالإضافة لذلك، كانت «المسألة الاجتماعية» نقطة البداية لكل من النظرية الاجتماعية المادية لكارل ماركس (1818-1883م) وفريدريك إنجلز (1820-1895م) وللخطوات الأولى نحو (علم المجتمع) في العالم الناطق باللغة الألمانية. حوالي عام 1850م، كان الممثل الألماني الأول مثل هذا «علم المجتمع» لورينز فو شتاين (1815-1890م)، الذي أسس مفهومه للمجتمع على تحليل الحركات الاجتماعية في فرنسا، وروبرت فون موهل (1799-1875م)، الذين أرادوا التفريق بدقة بين Geisteswissenschaften و Staatswissenschaften علم الاجتماع و ما يُسمى علم الدولة. حتى تلك الفترة، كانت العمليات الاجتماعية موضوع السؤال في المقام الأول في فلسفة التاريخ، وذلك على النقيض من هذه الأنظمة، حيث زعم فون شتاين وفون موهل أن «المجتمع» يجب أن يُنظر إليه على أنه مجال اجتماعي مستقل، حيث يجب تمييزه بشكل صارم عن الدولة. علاوة على ذلك، على عكس الاشتراكيين والشيوعيين النشطين سياسياً، أراد فون شتاين وفون موهل حل «المسألة الاجتماعية» بطريقة علمية، وذلك بطريقة الإصلاحات الاجتماعية لتجنب حدوث ثورة اجتماعية.

علاوة على ذلك، كانت التطورات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية للتاريخ الألماني German Reich، التي تأسست عام 1871م، موازية لظهور وتأسيس وإضفاء الطابع المؤسسي على علم الاجتماع، لأن الديناميكيات التي يمكن ملاحظتها الآن وعواقب العمليات المكثفة والسريعة التي أدت للتفاوت الاجتماعي، والتحول المجتمعي المختلفة، والتحديث، أفسحت المجال لمنظور تحليلي أوسع - «بصري اجتماعي» إذا جاز التعبير.

في مقابل ذلك، كان الافتقار إلى التحديث السياسي للتاريخ يتعارض مع التحديث الاقتصادي والثقافي المتسارع. لذلك، ينظر بعض علماء الاجتماع إلى ألمانيا على أنها «أمة متأخرة»، أو يصفون التطور الألماني بأنه «مسار خاص». فالخصائص المركزية للتطور الاجتماعي والتحديث عبارة عن تصنيع مكثف وصعود التاريخ الألماني ليصبح ثاني أقوى دولة صناعية في العالم، وتوسع الاقتصاد النقدي، وتراكم الأسلحة الهائل، والسياسة الإمبريالية للتوسع ولفترة معينة أيضاً من الاستعمار. كما تميز المجتمع بالنمو السكاني المتزايد، وتكثيف تقسيم العمل، والتفاوت الاجتماعي. في حين كان التوسع الحضري السريع مصحوباً بمشكلات الإسكان والفقر. كما نمت الحركات العمالية بسرعة، ومن ضمنها الحركة النسائية. من الجانب الآخر، شكك الميول نحو العلمنة في القوة الملزمة للديانة اليهودية والكاثوليكية والبروتستانتية. كما عززت التقنيات والاختراعات الجديدة مثل الكهرباء والسيارات والمنتاد الانطباع بأن هذه الحقبة كانت واحدة من التغييرات الكبيرة. بالإضافة لذلك، ظهرت خطوط علمية جديدة مثل علم الوراثة والدراسات الدينية والتحليل النفسي. حيث ازداد تأسيس النوادي وتشكلت أشكال جديدة من التواصل الاجتماعي مثل حركة Lebensreform (إصلاح الحياة)، والتي حاولت إرضاء التوق إلى المجتمع. كان هذا رد فعل ملموس على التمدن؛ ذلك أن التمدن سهل مرة أخرى الثقافة الجماهيرية، التي انتشرت من خلال دور السينما، والروايات المختلفة. أدى التسويق المصاحب للثقافة إلى انتشار «الثقافة الموضوعية» (كما ذهب جورج زيميل



## البندقية والسفينة والقلم: الحرب والدساتير وصنع العالم الحديث ليندا كولي

محمد السماك \*

لكل دولة دستور يُنظّم شؤون حكمها وتوزيع المسؤوليات بين مؤسساتها وقياداتها. ولكن من أين جاءت فكرة الدستور وكيف بدأت؟ ومن كان أول من أطلقها؟.

بعد أن وضعت أوزارها حرب السنوات السبع (والتي وصفها فيما بعد رئيس الحكومة الأسبق ونستون تشرشل بأنها كانت «أول حرب عالمية» نظراً لتداخل القوى الدولية المتقاتلة فيها) لاحظ باولي أن هذه الحرب خلّفت وراءها سلسلة من الحروب البيئية، وأن هذه الحروب تفتح الأبواب أمام تحالفات وتدخلات من قوى بحرية وبرية تؤدي إلى المزيد من اللااستقرار والتقاتل. ولذلك فإن الحكومات المحلية كانت تحتاج إلى الاستنفار الدائم لبناء وحدات عسكرية للقتال في البر والبحر، الأمر الذي كان يتطلب فرض ضرائب مرهقة على المواطنين. كان من نتيجة ذلك الأزمات الداخلية وتوالي الانفجارات الاجتماعية والاحتجاجية. ولاحتواء ردود الفعل هذه، أدرك باولي أنه لا بد من نظام يؤمن بمشاركة الناس في اتخاذ القرار السياسي.

صحيح أن ذلك سيكون على حساب السلطات المحلية المطلقة الصلاحية، إلا أن تنازلها عن هذه الإطلاقية كان ضرورياً لامتناس النعمة الشعبية وتأمين استمرار دعم العمل العسكري تمويلاً ومشاركة. وللتأكيد على ذلك كان لابد من نص يُعتمد بموافقة الجميع؛ فكان النص الدستوري. وهكذا تكون كورسيكا (الجزيرة التي احتلتها فرنسا من إيطاليا) قد أنجبت الدستور الأول.. كما أنجبت نابليون بونابرت!! أما كيف انتشرت بعد ذلك فكرة «الدستور» في أوروبا ومن ثم في العالم، فإن الفضل في ذلك

صيغة تنصّ على حق كل شخص -رجلاً أو امرأة- في انتخاب هيئة تتمتع بسلطة إدارة شؤون الجزيرة. وكانت تلك الصيغة «دستوراً». غير أن قصة «الدستور» أقدم من ذلك، كما تقول المؤلفة نفسها. تعود البداية إلى عام 1755 في جزيرة «كورسيكا» (وهي اليوم جزء من فرنسا وفيها ولد بونابرت). في ذلك الوقت كانت فرنسا منصرفه لعمليات التوسع في العالم متنافسة في ذلك مع بريطانيا. ولذلك أهملت هذه الجزيرة وتركها إلى مصيرها. ولكن صادف أن أحد أبناءها ويدعى «باسكوال باولي» كان من الثوار المغامرين معتقلاً في نابولي، ولما أطلق سراحه وعاد إلى الجزيرة، كان مشبعاً بالفكر التنويري الذي بدأت إشعاعاته الأولى في أوروبا وفي إيطاليا تحديداً. من توسكاني في الشمال إلى نابولي في الجنوب. وكان متأثراً جداً بنظريات المفكرين النهضويين الأوائل حول السياسة والاقتصاد والقانون والحريات العامة والفردية، فحاول أن يجسد ذلك في دستور لكورسيكا. وبالفعل كان ذلك النص الدستور الأول، وكان الدستور الأوروبي الأول أيضاً.

جاءت فكرة النص الدستوري «المكتوب» من المتغيرات السياسية والعسكرية المتواصلة والمتلازمة بما تفرضه من تبدل متواصل في المعادلات. ولذلك كان لابد من قاعدة ثابتة للتعامل مع هذه المعادلات المتغيرة؛ فكان الدستور.

هذه الأسئلة في الثقافة الدستورية تطرحها وتجيب عليها الدكتورة ليندا كولي في كتاب مثير حقاً عنوانه: البندقية، السفينة والقلم. وقبل الدخول في مضمون الكتاب. يُستحسن التوقف أمام العنوان. فالعوامل الثلاثة كانت متداخلة إلى حد التكامل من أجل التوصل إلى «العقل الدستوري» الناظم للعلاقات في المجتمعات وخاصة منها الاجتماعات المتعددة. وتأكيذاً لذلك نبدأ برواية القصة التالية: في أواخر شهر نوفمبر من عام 1838 رست سفينة قراصنة بقيادة «راسل إليوت» (بريطاني) في جزيرة «بتكارين» في الجنوب الباسيفيكي. وكان سبقه إليها قبل 51 عاماً البحارة البريطانيون التسعة الذين بقوا من مجموعة متمردة من بحارة السفينة «بوانتي» (قدّمت هوليوود فيلماً مشوقاً عنها قبل سنوات).

وجد إليوت نفسه مضطراً للعيش مع مجموعة من الناس تتجاوز المائة شخص بقليل؛ ولكن هذه المجموعة متعددة الأجناس والأعراق، ومعرضة للمزيد من الزوار اللاجئين الذين قد يفدون إليها في أي وقت بحثاً عن ملجأ أو مأوى خاصة من الصيادين.

أدرك إليوت أن المجموعة من المتمردين الذين استوطنوا الجزيرة يحتاجون إلى جامع ما. إلى علم يرمز إليهم، وإلى مجموعة من التنظيمات التي ترعى وتنظم شؤون حياتهم والتي يمكن أن ترسي قواعد ثابتة يقبل بها الجميع ويلتزم بها الجميع أيضاً. كانت تلك أول محاولة لوضع





والشمالية) وعلى أوروبا تحديداً. ويكشف عن الخلفيات الفكرية والثقافية التي تقوم عليها خصوصياتها من خلال دساتيرها المعتمدة. ذلك أنه من خلال الدساتير تشرح المؤلفة مجتمعات هذه الدول التي وضعت أو التي اعتمدت هذه الدساتير، بدءاً من جزيرة كورسيكا في البحر المتوسط حتى جزيرة «بيتكيرن» في المحيط الأطلسي .

إنها رحلة الإنسانية مع الدستور الناظم للحياة العامة وللعلاقات بين مواطني الدولة الواحدة. ومع تداخل المجتمعات الإنسانية، كان لا بد من وضع معاهدات دولية تنظم علاقاتها ومصالحها المتداخلة والمتناقضة أحياناً والمتكاملة أحياناً أخرى، فكانت وثيقة الأمم المتحدة، ووثيقة حقوق الإنسان، والمحكمة الدولية ومعاهدات تنظيم حركة الأموال والأسواق ومعاهدات البحار، وحتى الفضاء الخارجي .. إلخ.

أما احترام هذه المعاهدات التي تعطي ذاتها الأولوية حتى على الدساتير الوطنية، فذلك موضوع آخر لم تتناوله المؤلفة في كتابها .

ولكن المؤلفة تقول إنه في القرن التاسع عشر ساعد اكتشاف الاتصالات التلغرافية على انتشار فكرة اعتماد الدستور الناظم للحياة الاجتماعية .

وفي القرن الواحد والعشرين فإن السؤال الذي يفرض نفسه هو: أي أثر سوف يكون لاكتشاف الإنترنت الذي ألغى الحدود والمسافات بين الدول والشعوب؟.

## الكتاب: البندقية والسفينة والقلم:

### الحرب والدساتير وصنع العالم الحديث

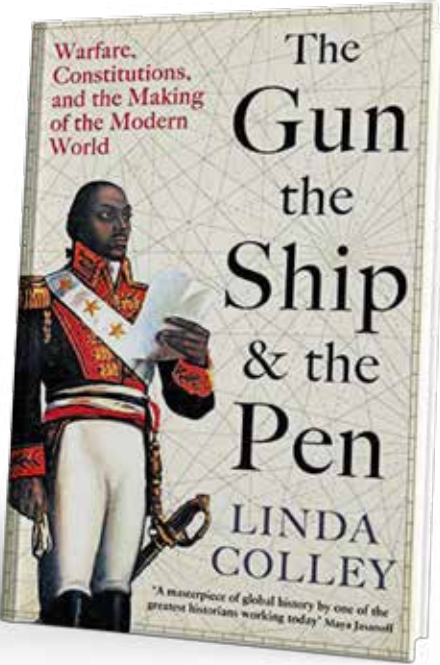
المؤلفة : ليندا كولي Linda Colly

الناشر : ليفرايت Liveright

الصفحات : 512

التاريخ : 2021

\* مفكر لبناني متخصص في دراسات العلوم والسياسة والفكر الإسلامي



وهاواي وهايتي، فقد عكست - حسب قول المؤلفة- آمالاً وتوجهات مختلفة تماماً.

وتذهب المؤلفة في دراستها عن الدساتير إلى الشرق الأقصى، وتقول إن اليابان مثلاً في عهد سلطنة «ميجي» في عام 1889، اعتمدت نصاً دستورياً نسبته إلى الإمبراطور الذي كان في ذلك الوقت يتمتع بالقداسة. علماً بأن الدستور المعتمد كان نقلاً عن الدساتير المتداولة في أوروبا وأميركا في ذلك الوقت. وتقول المؤلفة إن تلك المبادرة كانت للمزج بين الحداثة والأصالة. بمعنى اعتماد الحديث من الأفكار التنويرية لتنظيم المجتمع الياباني والعلاقات بين الناس والسلطات، وفي الوقت ذاته المحافظة على التقاليد التي تركزت على شخص الإمبراطور باعتباره مقدساً. وقد استمر هذا الأمر حتى عام 1947 . أي حتى انتهاء الحرب العالمية الثانية.

ولعل التربية الاجتماعية المحافظة والمعتمدة أساساً على العلاقة بين التجديد والأصالة في اليابان تمثل حقيقة الشخصية اليابانية التي تختلف في جوهرها عن شخصيات شعوب الشرق الأقصى كافة.

ويسلط الكتاب أيضاً ضوءاً ساطعاً على المجتمعات المتعددة في آسيا وأمريكا (الجنوبية

كما تقول المؤلفة يعود إلى اختراع الطباعة . بدأت العملية بالحوارات الشفهية ثم المكتوبة حول الحقوق ودستورها، ثم بطبع النصوص التي تتناول هذه الآراء والاجتهادات وتبادلها، مما فتح الباب على مصراعيه أمام الكثير من المثقفين والمفكرين للمساهمة في طرح الآراء والأفكار التي أغنت المسيرة الدستورية ورفدتها بالكثير من الاجتهادات التي اعتمدت فيما بعد وحتى اليوم . وجاء بعد ذلك اكتشاف التلغراف ليسهل عملية انتقال هذه الأفكار وتبادلها.

أما ما هو الدستور الأفضل، فإن الجواب هنا ليس واحداً. فالمؤلفة تنقل عن أحد القضاة الإنجليزي قوله -إن الدستور الأفضل هو الذي يتمتع بمواصفات تصلح لكل دولة ولكل جنس وفي كل وقت-. غير أن الملاحظة الهامة التي تفرض ذاتها هنا هي أنه ليس للمملكة المتحدة دستور.

وتقول المؤلفة إن بعض الدساتير المعتمدة في العالم أعطت الأولوية للأمر العملية وليس للقضايا المبدئية المثالية، وذلك بهدف إدارة شؤون المجتمع وحفظ حقوق الناس.

وتشير المؤلفة إلى أن الدساتير التي اعتمدت في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر مثلاً عمدت إلى منح الحقوق للبيض، وللذكور من البيض، وذلك بحجة أن هؤلاء هم الذين يقاتلون في الحروب، وهم الذين يدفعون الضرائب للدولة . حتى الدستور الأمريكي في ذلك الوقت شرع حق مصادرة أراضي السكان الأصليين.

وفي عهد نابليون (الكورسيكي الأصل) عمل على وضع دستور يشرع الاستيلاء على أراضي الدول التي قام بغزوها.

وتلقي المؤلفة الضوء على دساتير دول أمريكا الجنوبية التي شرعت في بداياتها أيضاً حق الاستيلاء على أراضي الهنود الحمر والسكان الأصليين، بحيث إن دساتيرها الأولى كانت تنص بصورة صريحة ومباشرة على التمييز العرقي.

أما الدساتير التي صدرت في دول مثل ليبيريا



## كيف نجت الصين من العلاج بالصدمة: مناقشة إصلاح السوق إيزابيلا ويبر

زينب الكلبانية \*

أصبحت الصين مندمجة بعمق في الاقتصاد العالمي. ومع ذلك، فقد سهلت عملية التسويق التدريجي صعود البلاد دون أن تؤدي إلى استيعابها بالجملة للنيوليبرالية العالمية.

وترك ما هو «خفيف» (غير مهم وهامشي). كان طموح جوانزي الأصلي هو توضيح كيفية تعزيز القدرة على توسيع واستخدام الموارد، حتى يتمكن الملوك من التغلب على المنافسين في عصر الحرب. لذلك، كانت كيفية تحقيق «الازدهار» والعمل المستقر للمجتمع، أمراً محورياً في جوانزي. في وقت لاحق، في السلالات الإمبراطورية، تم تحويل الدروس المجردة إلى ممارسات ملموسة، مثل احتكار الملح والحديد، ونظام صوامع الحبوب المستخدم لتسوية أسعار الحبوب، وما إلى ذلك.

المنطق المهم الذي حدده جوانزي، هو أن الاستقرار السياسي يحظى بالأولوية، حتى على حساب الحرية الاقتصادية. على سبيل المثال، من شأن التقلبات الكبيرة في الأسعار أن تؤدي إلى اضطراب اجتماعي، وهذا بدوره سيعرض للخطر الشرعية السياسية. يجب على السياسيين الحكماء بذل قصارى جهدهم لتجنب مثل هذه المواقف المحرجة. أصبحت هذه المعرفة نوعاً من الغريزة التي توجه كيف يتخذ أباطرة الصين القدامى والسياسيون المعاصرون القرارات. من المسلم به بشكل متزايد أن الصين الحالية تشترك في الكثير من الاستمرارية مع ماضيها، فيما يتعلق بالبنية المجتمعية، والأيديولوجية السياسية. تأثرت ممارسات الكوادر الشيوعية في ثلاثينيات وأربعينيات القرن العشرين بالحكمة الكلاسيكية أيضاً.

مثل الدول الاشتراكية في أوروبا الشرقية، أنشأت الصين أيضاً الاقتصاد الستاليني، المخطط الذي كانت الأسعار فيه تخضع لرقابة صارمة من قبل الحكومة، وتم تنظيم الإنتاج والتوزيع من خلال أوامر لجان التخطيط كما ذكر في الفصل الرابع من هذا الكتاب. بحلول أواخر السبعينيات، فشلت الصين في تحسين مستويات معيشة الناس أو الوفاء بوعد الاشتراكية المجيدة.

بعد وفاة الزعيم ماو تسي تونغ، بدأ السياسيون في محاولة إلغاء القيود والتصنيع الموجه نحو الغرب. في أوائل

مستمرة وفشلاً؟ يستحق هذا التاريخ اهتماماً مكثفاً، لكن قلة منهم نظروا إليه بدقة مثل إيزابيلا ويبر. في كتابها واسع النطاق كيف نجت الصين من العلاج بالصدمة، إذ وجدنا خريطة تلقي الضوء على كيفية اتخاذ الحكومة الصينية قراراً بشأن «التدرج التجريبي»، بدلاً من العلاج بالصدمة تحت تأثير الحكمة التقليدية الصينية والمفكرين المعاصرين.

يتعمق الجزء الأول من الكتاب، في الدروس الكلاسيكية الصينية وتحديداً (كتاب جوانزي) بشكل أساسي، والخبرة السابقة في التحكم في الأسعار، وإلغاء القيود في الدول الغربية، والممارسات الملموسة للكوادر الشيوعية، التي تهدف إلى إدارة الاقتصاد، قبل أن يكتسب الحزب الشيوعي الصيني السلطة الوطنية. يشرح الفصل الأول سبب رفض القادة الصينيين للعلاج بالصدمة، وتمكنوا من إدخال نظام المسار المزودج في الثمانينيات، والذي لعب دوراً أساسياً في إصلاح السوق في الصين.

ينص العلاج بالصدمة على ضرورة إنهاء مراقبة الأسعار والاقتصاد المخطط من خلال تحرير الأسعار بين عشية وضحاها والخصخصة الجوية. على الرغم من أنه قد يكون هناك ألم اقتصادي على المدى القصير، بما في ذلك البطالة الجماعية والتضخم، فإن الاقتصاديين الليبراليين يقترحون أن هذه الطريقة ستؤدي في النهاية إلى الانتعاش الاقتصادي، وتنشيط الأسواق والازدهار. كان العلاج بالصدمة في يوم من الأيام مقدمة لـ «المعجزة الاقتصادية» في ألمانيا الغربية، لكن ممارسته المنتشرة في روسيا وأوروبا الشرقية، أدت إلى كوارث اقتصادية. وجد القادة الصينيون ذلك مخالفاً تماماً لما ورثوه من التعاليم القديمة.

في كتاب جوانزي، وهو كتاب مدرسي سياسي كتب منذ ٢٠٠٠ عام. ويشرح بحكم متونوعة حول كيفية إدارة «السياسة»، تم تعليم أن المسؤولين يجب أن يتحكموا فيما هو «ثقيل» (مهم وضروري) من أجل حياة الناس والاستقرار الاجتماعي.

يكشف هذا الكتاب عن المنافسة الشرسة حول الإصلاحات الاقتصادية التي شكلت مسار الصين. في العقد الأول بعد ماو، كان الإصلاحيون في الصين منقسمين بشدة، واتفقوا على أن الصين يجب أن تُصلح نظامها الاقتصادي، وتتجه نحو المزيد من التحول إلى السوق، لكنهم كافحوا بشأن كيفية القيام بذلك. هل ينبغي للصين أن تدمر جوهر النظام الاشتراكي من خلال العلاج بالصدمة؟ أم ينبغي أن تستخدم مؤسسات الاقتصاد المخطط كصانع للسوق؟ بعد فوات الأوان، يثبت السجل التاريخي المخاطر الكبيرة وراء السؤال: شرعت الصين في توسع اقتصادي يوصف عادة بأنه غير مسبوق من حيث النطاق والوتيرة، في حين انهيار الاقتصاد الروسي تحت العلاج بالصدمة. استناداً إلى أبحاث مكثفة، بما في ذلك مقابلات مع مشاركين صينيين، ودوليين رئيسيين، ومسؤولين بالبنك الدولي، بالإضافة إلى رؤى مستمدة من وثائق غير منشورة، يرسم الكتاب الجدل الذي مكن الصين في نهاية المطاف من اتباع مسار إعادة التصنيع التدريجي. إلى جانب إلقاء الضوء على مفترق طرق الثمانينيات، فإنه يكشف الأسس الفكرية للعلاقات بين الدولة والسوق في حقبة الإصلاح في الصين من خلال عدسة طويلة الأمد. بشكل عام، يقدم الكتاب منظوراً أصلياً للنموذج الاقتصادي للصين وتنافساته المستمرة من الداخل ومن الخارج.

تقول إيزابيلا ويبر، كان النمو الاقتصادي في الصين لافتاً للنظر. بدأت القصة في الغالب في أوائل الثمانينيات، حيث قدمت الحكومة الصينية سياسة «الإصلاح والانفتاح»، لتحويل الاقتصاد الاشتراكي المخطط. لم تكن الصين الدولة الوحيدة، ولا الأولى التي أطلقت إصلاح السوق، لكنها كانت الأكثر نجاحاً بين الدول الاشتراكية. ما الذي أدى إلى هذا «الاختلاف الكبير» الاشتراكي الذي رفضت فيه الصين الإصلاح الضخم بينما اختارت دول اشتراكية أوروبية أخرى العلاج بالصدمة، وواجهت فوضى اقتصادية



مستثنون تماماً من أي تأثير فكري، عادة ما يكونون عبيدا لبعض الاقتصاديين البائدين». يقدم كتاب ويبر مثالا حيا على ذلك من خلال تاريخ الصين في إصلاحات السوق الصينية.

تعتقد ويبر أن منطق الفهم الواضح جدا للأجزاء الأساسية، وما هي الأجزاء الأقل أهمية، ثم التفكير في كيفية توجيه الأجزاء الأساسية نحو تغيير النظام ككل. إنه حقا درس مهم آخر ينبثق من القصة الصينية. وتعتقد أنه في الواقع، هذا شيء يمكننا رؤيته كجزء من ممارسة الحكومة إلى حد ما حتى اليوم. إذا نظرنا إلى كيفية تعامل الصينيين مع مسألة التضخم الخاصة بهم، فيمكننا أن نرى أنهم أوضحوا بشكل أساسي أن السياسة النقدية، أي قمع الرجال من خلال السياسة النقدية هي وسيلة الملاذ الأخير.

إن ما يحاول الصينيون فعله هو احتواء ارتفاع الأسعار عن السلع الأساسية أولاً، وبالتالي تجنب الآثار المضاعفة في جميع أنحاء النظام، ثم احتواء تضخم دفع التكلفة من خلال التركيز على العنصر الأساسي الذي يطلق العنان لهذا النوع من الديناميكية بدلا من تقييد العرض النقدي للاقتصاد ككل. لذلك يمكننا أن نرى هذا المنطق مرارا وتكرارا في جميع أنواع قرارات السياسة الاقتصادية.

إذا كان التضخم هو أكبر تهديد لأفاق الاستثمار على نطاق واسع في البنية التحتية التي تمس الحاجة إليها، فإن الصين تتجه نحو احتواء ديناميكيته التضخمية. إذا أخذنا ذلك في الاعتبار، نظرا للهيكلة الحالي لسلاسل التوريد، فإن أي زيادة كبيرة في الاستثمارات في البنية التحتية المادية ستشمل واردات كبيرة جدا من الآلات وما شابهها من الصين. في الختام، كانت الحكمة الكلاسيكية والدروس الموجودة والمناقشات المعاصرة هي التي ساعدت الصين على «الهروب من العلاج بالصدمة».

• اسم الكتاب: كيف نجت الصين من العلاج بالصدمة: مناقشة إصلاح السوق

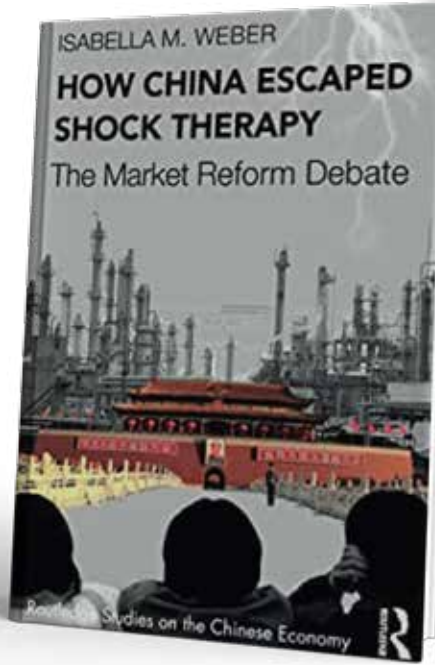
• المؤلف: إيزابيللا ويبر

• دار النشر: مجموعة راوتليج تايلور وفرانسييس

• عدد الصفحات: 327 صفحة

• سنة النشر: 2021م

\* كاتبة عُمانية



الاستقرار الاجتماعي، الذي كان بمثابة كابوس مدى الحياة لقدامى المحاربين الشيوعيين. نجحوا عدة مرات في إجهاد خطط أولئك الذين أرادوا أن يكون التحرير أسرع. في ظل هذه الظروف، تم التوصل إلى حل وسط: مع شرط مسبق للاستقرار الاجتماعي، تم السماح لآلية أسعار محدودة بالتدخل تدريجيا. يجب على الحكومة التحكم فيما هو ضروري لحياة الناس اليومية حتى يمكن تجنب الاضطرابات الاجتماعية. ينبع هذا المنطق السياسي من الحكمة الكلاسيكية الصينية التي من خلالها أعطى السياسيون الأولوية للاستقرار الاجتماعي، وشدوا على السلوكيات البراغمية.

وبالتالي، فإن الاحتمالية والضرورة متشابكان هنا. لم تقنع النقاشات في الثمانينيات صانعي القرار الصينيين بفوائد العلاج بالصدمة، لكنها كشفت المخاطر المحتملة لمثل هذا الإصلاح. كما أخبرهم المنطق السياسي الذي تم اختباره منذ فترة طويلة، بتجنب الأعمال التي قد تعرض الاستقرار للخطر. من النهج التدريجي نمت آلية السوق في نهاية المطاف في التسعينيات، والعقد الأول من القرن الحادي والعشرين.

لقد توقع ماكس ويبر ذات مرة في عام 1919: سيكون الصينيون رأسماليين ممتازين، بمجرد إزالة عقبات القواعد الأخلاقية. في الإدراك المتأخر، يمكن أن يكون أحد أفضل التنبؤات على الإطلاق في العلوم الاجتماعية. إذا تحدثنا عن النمو الاقتصادي، فلا شك أن الإصلاح الصيني ناجح. وخلف ذلك كان التوجيه الذي سعى من ناحية إلى الازدهار الاقتصادي بتوجيهات من الفكر الليبرالي، ومن ناحية أخرى، الاستقرار السياسي دون وعي. كتب جون ماينارد كينز أن «الرجال العمليين الذين يعتقدون أنهم

الثمانينيات، تم لفت الانتباه إلى تحرير الأسعار الذي كان يُعتقد أنه جوهر إصلاح السوق. ومع ذلك، كان هناك إجماع ضئيل بين السياسيين أو الاقتصاديين حول كيفية تحرير آلية السعر في البداية. تبنى السياسيون نهجا تجريبيا: «عبور النهر عن طريق لمس الأحجار». اعترفت الحكومة بحذر وببطء بوجود الأسواق السوداء، وتداول السلع على نطاق ضيق خارج آلية التخطيط. انتشرت الأسواق في هوامش كبيرة، وأصبحت أساس نظام المسار المزدوج.

من خلال نظام المسار المزدوج، أدخلت الصين تدريجيا تحرير الأسعار. من ناحية أخرى، فإن الوحدات الإنتاجية، مثل المصانع المملوكة للدولة والأسر الريفية، ملزمة بالوفاء بالإنتاج الإجباري الخاضع لاستخراج الحكومة أو فرض الضرائب. و بعد تحقيق الإنتاج الإجباري، يمكن لهذه الوحدات الاستفادة من قدرتها الإضافية لإنتاج المزيد من السلع للتداول الحر الذي تسود فيه آلية السعر. من خلال هذه العملية، وسعت آلية السعر نطاقها تدريجيا.

ومع ذلك، طوال الثمانينيات بأكملها، وبينما تم التوصل إلى إجماع على أن الإصلاح ضروري، استمرت النقاشات حول أي نهج سيكون أفضل، إصلاحا كبيرا أم تدريجيا. يقدم ويبر خريطة معرفية مفصلة في الجزء الثاني من تلك المناقشات الفكرية التي يمكننا من خلالها العثور على أدلة حول سبب «هروب الصين أخيرا من العلاج بالصدمة». في أوائل الثمانينيات، جاء خبراء اقتصاديون من أوروبا الشرقية والغرب لزيارة الصين وألقوا محاضرات فيها. لكن صانعي القرار الصينيين لم يأخذوا نصيحتهم، على الرغم من أن بعض المثقفين الصينيين الشباب تم الترويج لهم من خلال حزمة الإصلاح التي اقترحها الاقتصاديون الأجانب.

في وقت لاحق، في عامي 1986 و 1988، أفلتت الصين من العلاج بالصدمة مرتين. في عام 1988، مارست الحكومة الصينية تقريبا عملية تحرير شاملة، لكنها أدت إلى تضخم مفرط، غير مسبوق في تاريخ جمهورية الصين الشعبية، ثم عدم الاستقرار الاجتماعي. وسرعان ما تم إنهاء التحرير، وأعيد فرض الرقابة الصارمة. لماذا كان النهج التدريجي مفضلا دائما؟ في الثمانينيات من القرن الماضي، لم يكن أولئك الذين دعموا العلاج بالصدمة طفيفا أو ضعيفا من الناحية السياسية. قد يكمن مفتاح الإجابة على هذا السؤال في حقيقة أن صانعي القرار الصينيين أدركوا النتيجة المحفوفة بالمخاطر المحتملة لتغيير البحر، وكانوا يقدرين الاستقرار الاجتماعي قبل كل شيء. لم يفقد أنصار آلية التخطيط، مثل تشين يون، أحد أهم المهندسين في الاقتصاد المخطط في الخمسينيات من القرن الماضي، نفوذهم السياسي في الثمانينيات. حول تشين يون تشكلت مجموعات من المحافظين العنيدون الذين عارضوا التحرير على كل الحدود. كانت لديهم مخاوف عميقة بشأن التضخم وعدم



## مستقبل التعليم: كيف تتطور "المدارس القديمة" نحو تعليم مثير ومبتكر هيزكي آرييلي

فينان نبيل \*

قال رئيس الوزراء البريطاني «نستون تشرشل» بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة، إن امبراطوريات المستقبل هي امبراطوريات العقل. لقد فهم تشرشل (عام 1943) أن المستقبل لن يعتمد على «الكم بقدر ما سيعتمد على الكيف»، فإذا كانت الموارد الطبيعية مثل النفط، والذهب، والنحاس، وغيرها هي معيار التنمية، فالمستقبل يعتمد على ما هو أثنى من الموارد الطبيعية، وهو العقل البشري، الذي أضحت قدراته اللامتناهية أثنى رصيد للتنمية العالمية.

لم يتغير دور المعلم ووظائفه كثيرا طيلة السنوات الماضية منذ الثورة الصناعية، فقد كان دور المدارس آنذاك، أن تخرج ذوي الياقات الزرقاء لكي توظفهم في خطوط الإنتاج إلى جانب الآلات التي لا تتوقف عن العمل، وكانت مواقع العمل تتطلب عددا كبيرا من هؤلاء بسبب الارتفاع الهائل في عدد المصانع في الغرب. لم تكن هذه الوظائف تتطلب فكرا نقديا، أو إبداعيا، ولا تعلما ذاتيا، أو تفكيريا مستقلا لأدائها. يدخل جميع الطلاب المدارس في المرحلة الأولى، ليتخرجوا بنفس المهارات، والمعارف، وحتى نمط الشخصية، فالتدريس المباشر يؤدي إلى جعل الأطفال سلبيين يتمثل دورهم في الاستماع إلى المحاضرة، وتدوين الملاحظات في الدفاتر الخاصة بهم، وحفظ المعلومات لاسترجاعها وقت الامتحان. أدى هذا الأمر إلى نشوء مفهوم تربوي كارثي يسمى «التدريس الجبهي» الأمامي، يُنفذ من خلال وقوف المعلم في مقدمة الفصل ليحاضر الطلاب، وتكون المحاضرة في المنهج الدراسي الرسمي، وفقا لما يجيء في الكتب المدرسية، التي تنتجها الأوساط الأكاديمية، وفقا لما تطلبه الحكومات المحلية، دون أي التفات لفرديّة الطفل، أو احتياجاته، واهتماماته، وخلفيته، وقدراته، والصعوبات التي قد يواجهها في التعلم.

يستخدم المعلمون الاختبارات لتقييم مدى قدرة الطلاب على حفظ المعلومات المقدمة لهم، خلال الفصل الدراسي، ويتم إعطاء الدرجات الأعلى للطلاب الذين ينجحون في حفظ كلمات المعلم، وتذكرها بشكل أكثر دقة، ولا يتم اختبارهم لمعرفة مدى فهمهم لمحاضرة المعلم، فقد كان الاختبار قياسا للحفظ والاسترجاع. كان التعليم «الجبهي» مرتكزا على المعلم حيث هو «الحكيم الذي يعتلي المسرح»، والطلاب هم جمهوره، وكان هذا الأسلوب ضروريا وفعالا في ذلك الوقت، فكل ما كان يلزم المجتمع، هو إنتاج مجموعة من الخريجين المتماثلين الذين يتلقون جرعة متماثلة من التعليم، لغرض مماثل، فقام هذا النظام بتوحيد التعليم في النظم المدرسية في جميع أنحاء العالم، وهو أمر غريب لأن البلدان لها ثقافات مختلفة، وتحديات اقتصادية مختلفة، وخصائص اجتماعية مختلفة، ومع ذلك تتطابق مدارسهم تماما.

دعا الكاتب إلى التغيير لأن ما كان جيدا للماضي لا يمت للحاضر بصلة، وما كان منتجا إبان الثورة الصناعية، أصبح

بينما استقل العالم قطارا أسرع من الصوت وظلت المؤسسات التعليمية متخلفة عن الركب، وأصبح من الضرورة ألا تستقل المدارس هذا القطار فحسب، بل ينبغي أن تقوده، فنحن الآن أمام مشهد لم يكن من الممكن التعرف عليه قبل بضع سنوات في مجال التعلم، قبل التطور التكنولوجي. كانت جائحة «كوفيد-19» أمرا مأساويا مروعا، لكنها أيضا صيحة تنبيه، ونافذة لأنظمة جديدة في فرص التعليم في مختلف أنحاء العالم، فقد فرض الوباء على المدارس التكيف مع حقائق جديدة، وأجبرها على أن تجري إصلاحات من القاعدة إلى القمة في كل جانب من جوانبها الروتينية، وأن تعتمد طرقا مبتكرة للتعامل مع الأزمة.

يمنح «هيزكي آرييلي»- المربي وصاحب الاستراتيجية من خلال هذا الكتاب، مقعدا لأصحاب المصلحة من الآباء، المعلمين، والمربين، وأي شخص مهتم بمستقبل الأطفال والعالم، يستطيعون من خلاله ملاحظة، وتجربة، وتقييم تطور المدارس القديمة، وتحويلها إلى مدارس إبداعية، ويقدم خارطة طريق عملية تجريبية مفصلة، تشمل الأساس المنطقي، وخطط العمل التي ستسمح للنظام التعليمي بتحقيق قفزة هائلة في جميع مكوناته، لتعيده إلى أرض الواقع، وتجعله يتوافق مع المستقبل الذي يتغير باستمرار، ولا يستطيع أحد أن يتنبأ بمده.

يؤكد الكاتب أن التميز لا بد أن يكون عالميا، وكليا، ولا يقتصر فقط على التفوق الأكاديمي كما يعتقد جل الآباء والمعلمين، ويجب تشجيع التعليم المتميز، فالمعرفة أصبحت هي العملة الأكثر قيمة على الإطلاق في ظل العالم المتغير، إذ لا زال التعليم يشكل المسار الأضمن إلى الإبداع، وخلق فرص للازدهار.

قام الكاتب بزيارة عدد من المدارس في معظم بلدان العالم، تفاوتت في مستواها، بين المدارس الفقيرة والبدائية في الأعدال، والمدارس الأكثر حداثة في البلدان المتقدمة، وما أثار دهشته أن معظم المدارس بغض النظر عن تمويلها، أو نوعية معلمها تتشابه إلى حد كبير في المنهجيات، وطرق التدريس، فقد كانت الطرق الأكثر شيوعا هي عرض المعلومات، والتدريس من أجل الامتحانات، والتعليم القائم على التذكر، ولا زالت المعايير التي تم اختراعها في منتصف القرن التاسع عشر، تستخدم في مدارسنا في العصر الحالي.

تعيش البشرية الآن أكثر الأوقات سحرا، وإثارة في تاريخها؛ فقد حدثت طفرة من التغيرات في فترة زمنية قصيرة وصلت لنقطة اللاعودة، وتلاشى الفرق بين العلم والخيال العلمي. تحرك هذه التغيرات تكنولوجيات سريعة بالغة الأثر وتذهب إلى أبعد من مجرد تحسين الإلكترونيات، أو جعل نمط الحياة أكثر راحة، فقد باتت تؤثر على كل جوانب حياتنا، وسلوكنا الشخصي، وقيمنا الاجتماعية الأساسية، وحياتنا الأسرية، والعلاقات بين الآباء والأبناء، وزملاء العمل والمدرسة، وحتى بين الشعوب.

أصبحت الأبحاث العلمية والأكاديمية أكثر عمقا، وتطورا، وأكثر عالمية وإبداعا وإنتاجية، ووصلت آثار التغيير إلى مجال الاتصالات والنقل، والعمال، والمصارف، والتسويق، والحياة الثقافية، والسياحة، والترفيه، والرعاية الطبية، والإعلام. كما تؤثر على سلوكنا العقلي ونظرتنا للحياة، وصنع القرار، ومستوى المعرفة والفهم، والمهارات والقدرات؛ فأصبح أكبر الأطباء شهرة ممن كان يشار إليه بالبنان حتى فترة قريبة بدائيا ما لم يطلع على الإبداعات والتطورات الطبية، كما لم يعد بإمكان الشخص الذي يشغل منصبا تنفيذيا الاحتفاظ بوظيفته اليوم، دون استثمار وقت هائل في التدريب المهني المستمر، والبحث وفهم متطلبات العالم الجديد التي تعتمد على الإبداع والابتكار وأصالة الأفكار.

تتشكل الاتجاهات العالمية عادة بسبب الثورات الصناعية والاجتماعية التي تؤثر على العالم بأسره، الذي يشهد الآن الموجة الرابعة من الثورة الصناعية، التي تشير إلى التشغيل الآلي، وتبادل البيانات في تقنيات التصنيع التي تؤثر على معظم جوانب روتيننا اليومي، وأضافت عشرات المصطلحات والمفاهيم الجديدة مثل الإنترنت والحوسبة السحابية، والذكاء الاصطناعي، وقواعد البيانات الضخمة، والنانو، والروبوت، لذلك أطلق عليها «الثورة المعرفية»، التي أصبح العقل البشري فيها أعلى السلع والموارد، وأصبح أساسا لنمو الاقتصاد، فالموارد الطبيعية لم تعد معيارا للتنمية الدول كما كان في السابق، فقد أصبحت بعض الدول فقيرة ومتخلفة رغم غناها بالموارد الطبيعية، ونهضت دول واحتلت مكان الريادة رغم ضآلة مواردها، لأنها كانت قادرة على الابتكار المستند على العقل البشري.



بل أيضا، على قدرات المدرسين على استيعاب المنصات المسلية، والممتعة وجعلها أسهل للمتعلمين؟ يجب أن يجد المعلمون مصادر للتعليم تتطابق مع ما يسعى الطلاب إلى تعلمه، وأن يدركوا أحدث تقنيات التعلم الفردي للطلاب التكنولوجية، ومن ثم تقديم تعليم مستهدف مماثل بدقة للتعلم الفردي أو أقصى قدر منه. ينظر الطلاب المعاصرون إلى العالم ويتفاعلون معه من خلال عدسة فريدة، ونتيجة لهذا فإنهم يتعلمون بطرق مختلفة جوهريا عن تلك التي تعلمها أسلافهم، والسبب في ذلك انتشار التعلم البصري، والتعلم الاجتماعي، وعصر التنقل السريع، والبيانات الضخمة، والألعاب، والطابع الشخصي الذي غير وجه التعليم. في ضوء هذا يحتاج المعلمون إلى فهم أن التعلم لم يعد يتم تعريفه فقط بواسطة المعلم وجرس المدرسة، وأن يسعوا إلى الفهم واستخدام احتمالات أخرى. لا بد من استيعاب التعلم القائم على السحابة الإلكترونية والدورات الضخمة المفتوحة عبر الإنترنت، والألعاب، والفيديوهات التعليمية. والتعامل مع التغيير ليس مجرد أن يكون المربون بارعين فيما يقومون به، بل أن يكون ما يقومون به في العالم ذا صلة بما يحدث خارج المدرسة، والاحتياجات الحالية والمستقبلية.

يكن التحدي الأكبر لتحقيق هذه الغاية في التغلب على العقليات التقليدية، التي أصبحت تشكل عقبة دون السماح بحدوث التغيير، وإقناعهم أن الحاجة الآن لتعلم الفكر بدلا من تشجيع الحفظ، وأنا تجاوزنا عصر الإجابة الواحدة لكل الأشخاص، وأصبح من الضروري إطلاق غريزة الإبداع التي ولد بها أطفالنا. إن إعادة برمجة التعلم في العصر الحديث تتطلب دعم المتعلمين في تطوير مهاراتهم الذهنية، للتغلب على التغيير الذي يسير بوتيرة محمومة، في عالم أصبحت المعرفة فيه متاحة ووافرة.

يجب أن نضع نصب أعيننا افتراضات العالم الحديث، التي تؤهلهم لفرص العمل في حياة دائمة التغيير ليسهل عليهم التكيف مع سيواجهونه في الحياة، والعواقب المترتبة على هذا التغيير السريع مما يستلزم إعادة هيكلة المدارس بعيدا عن التوجه التقليدي، وإعادة التفكير في نمط التعلم، ومهاراته؛ فقد أضحت مستقبل الأمم في أيدي المتعلمين، وفي قيم التعلم ومنهجياته التي تمكنهم من الوصول إلى الحلول التي تساعدهم على التكيف مع أليات العالم الجديد.

• **الكتاب: مستقبل التعليم: كيف تتطور "المدارس القديمة" نحو تعليم مثير ومبتكر**

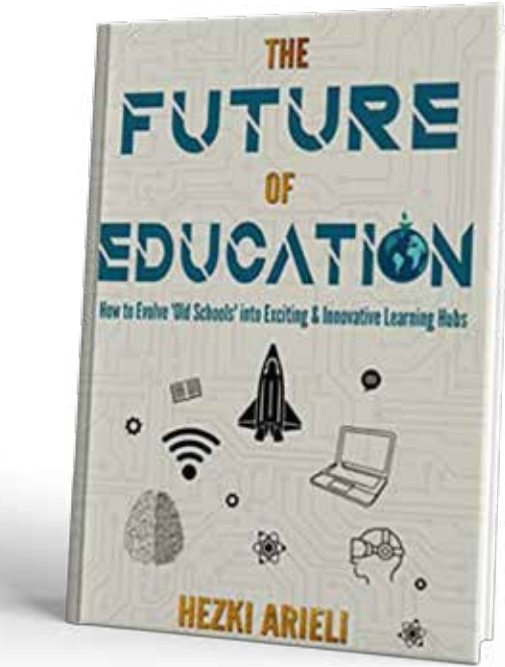
• **المؤلف: هيزكي آرييلي**

• **الناشر: منشور مستقل (30 مارس 2021)**

• **اللغة: الإنجليزية**

• **غلاف عادي: 236 صفحة**

\* **كاتبة وباحثة مصرية**



اليوم، وليس الماضي، فعملية الإعداد القائمة في المدارس ليست عتيقة وخاطئة فحسب، بل تؤدي أيضا إلى نتائج عكسية، وغير ذات صلة بالواقع الحالي، فعلى سبيل المثال، كان يطلب في الماضي من المدارس أن توفر المهارات اللازمة لكي تصبح مزارعا باستخدام أساليب زراعية بدائية، وكان متوقعا منها أن تفعل ذلك، فلا فائدة من تدريس هذه الأساليب اليوم، فالزراعة لم تتغير وحدها، ولكن الساحة المهنية بأكملها تغيرت. كذلك يجب أن تتغير برامج التدريب بأكملها؛ للقيام بعمل جيد في إعداد الطلاب للعالم المعاصر. يتعين على المعلمين أن يكونوا على دراية بالاتجاهات العالمية الحالية، ويجب أن تحافظ المدارس على تواصل مستمر مع العالم الخارجي الذي ينضم إليه خريجوها واحتياجاته، وهكذا يتطلب الأمر إعداد المناهج الدراسية المختلفة عن تلك المستخدمة في الماضي.

ثالثا: أن يتطلع التعليم إلى المستقبل، الذي يشير أساسا إلى حياة الطلاب بعد التخرج من المدرسة، ويمثل التحدي الأكبر، في عالمنا المتغير دائما؛ فالمستقبل لا يمكن التنبؤ به نظرا لإيقاع التغيير السريع. على الرغم من التكنات العديدة، إلا أننا لانملك إلا تخمينات غامضة بشأن الوظائف الدقيقة التي سوف يتطلبها المستقبل، والمهارات التي يتعين تواجدها في المستقبل، والوظائف التي سوف تحل محلها روبوتات، وآلات، كما لا يمكننا أن نتنبأ بالتحديات المهنية، والاجتماعية والأخلاقية، والشخصية، والمواقف التي سيواجهها طلابنا في الوقت الحالي ومستقبلا، فأصبح لزاما أن نقوم بعمل جيد في إعداد التلاميذ للمجهول.

أصبح الطلاب يتساءلون لماذا عليهم أن يحفظوا أسماء عواصم الدول، بينما يمكنهم العثور على الإجابة الصحيحة على الإنترنت أو بالذكاء الاصطناعي في ثلاث ثوان أو أقل، أي شخص لديه جهاز متصل بالإنترنت لديه إمكانية الوصول إلى كامل المعرفة البشرية. لم تعد مهنة التخزين المؤقت محصنة ضد مظاهر التقدم العلمي فطلاب اليوم عادة ما يجد المصادر المتاحة على جوجل ويتحاور مع معلميه، ولا تقتصر مصادر التعلم المتاحة على الروابط المؤسسة عبر الإنترنت

مدمرا في ظل الثورة المعرفية التي نعيشها الآن، فلم يعد مفهوم «الجميع للجميع»، الذي كان يفرض على جميع الطلاب تعلم جميع المواد بغض النظر عن ميولهم واهتماماتهم يصلح الآن، واتفتحت الأغلبية على ضرورة التغيير، فقد افتقر العاملون بالمدارس إلى المعرفة، والأدوات اللازمة لإجراء التغيير، وتشكيل مرافق تعليمية متقدمة تدور حول قيم الابتكار والإبداع والتميز.

بينما يسعى العالم الآن إلى مواكبة التقدم والتغيرات العالمية، فإن النظام التعليمي يعاني في أغلب الأحوال من حالة جمود وتخلف، وهناك فجوة حرجة متنامية، بين المدارس والواقع سريع التغيير، ومازلنا نعلم أطفالنا كيف يتعاملون مع واقع عالم الأمس، وهو خطأ تاريخي فادح يرتكبه جيلنا على نطاق عالمي ويتحمل الجميع ثمنه وتبعاته، فلماذا نفضل هذا، ولماذا نتجاهل مستقبل أطفالنا، ومستقبل العالم؟ مما يتسبب في إضعاف طلابنا، وتعريض مستقبلهم وبالتالي مستقبل المجتمع العالمي للخطر، مما دفع الكاتب أن يقدم خارطة طريق شاملة تركز على طبيعية، وكيفية التعليم من أجل المستقبل.

الهدف الاستراتيجي للتعليم

يرى الكاتب أن نقطة البدء في رحلة إحداث تغيير، وتعديل المدارس لمواكبة التغيير السريع في العالم، وتحويلها إلى لاعب أساسي، وقوة فاعلة في الموجة الرابعة من الثورة العالمية، هي فهم جوهر وأسس مفهوم المدرسة، لماذا توجد وما الهدف الاستراتيجي للتعليم؟ وهو تساؤل صعب وجد خطير، فمن المهم بمكان أن نحدد هدفا استراتيجيا دقيقا واضحا للغاية لمدارسنا، وكلما كان أكثر وضوحا، كانت الخطة للوصول إليه أكثر فاعلية، وبإمكان موظفي المجتمع والمدارس أن يتبعوا دليلا واضحا على طريق النجاح.

ويجب عند تحديد الهدف الاستراتيجي أن نراعي القاعدة التالية، «إن الأهداف الاستراتيجية ينبغي أن تركز دائما على الواقع المنشود، بدلا من الوضع الراهن»، فالهدف الاستراتيجي للتعليم هو «إعداد الطلاب للحياة حاضرا ومستقبلا»، هذا هو سبب إنشاء المدارس ووجودها اليوم، وبقائها إلى الأبد.

وجه الكاتب لمبادئ توجيهية تحدد ما ينبغي، وما لا ينبغي القيام به نحو تحويل مدارسنا إلى مؤسسات حديثة ومبتكرة. أولا: الإعداد: يتضمن الإعداد توفير كل ما يحتاجه الطلاب للتأقلم مع حياتهم الحالية والمستقبلية، ويشمل ذلك المحتوى والأدوات وأساليب التفكير، والفهم والمهارات الاجتماعية، وخصائص الذكاء، والجودة، ويشمل التعرف على الاتجاهات والحقائق الحالية والمتوقعة، والقواعد الاجتماعية، والقانونية للسلوك العادل والأخلاقي. ويجب علينا تزويدهم بالخلفية التاريخية، والأخلاقية، والمهنية التي استرشد بها مجتمعنا على مر السنين، وأوصلنا إلى ما نحن عليه اليوم سواء، للأفضل أو للأسوأ. فيما يتعلق بالطلاب، يتعهد المجتمع إلى أبنائه بالمدارس أن يجهز النظام التعليمي للأطفال، ويعددهم لتولي العالم، عندما يحين وقت توليهم التحكم، والقيادة، كما يمنح المجتمع المدارس الثقة للاعتناء بكل طفل من الأطفال كفرد، وكعضو في مجموعة أثناء مواجهتهم للتحديات التي تواجههم في التعامل مع المهام، والمواجهات الاجتماعية، والفكرية والشخصية، وإذا كانت المدارس حققت كل هذا سابقا، فإنها لم تحقق هذه التوقعات في أيامنا هذه.

ثانيا : التعليم من أجل الحاضر يستلزم مواجهة تحديات

# إصدارات عالمية جديدة

اللغة الفرنسية (سعيد بوكرامي)

## المغامرون والمسافرون والعلماء

الاكتشاف الأثري لسوريا في القرنين

السابع عشر والعشرين

المؤلف: آني سارتر فورير

الناشر: منشورات CNRS باريس. فرنسا

سنة النشر: 2021

عدد الصفحات: 304 صفحات

اللغة الفرنسية



تعتبر سوريا، أرض العبور لآلاف السنين، لذلك تركت كل حضارة بصماتها كما صنفت آلاف المواقع هناك ضمن التراث الإنساني. ومع ذلك، فإن الأوروبيين لم يبدؤوا في الاهتمام بهذا الإرث الحضاري حتى نهاية القرن السابع عشر. إن وصف تدمير بواسطة القس هاليفاكس عام 1691، ثم وصف «الأثريين» روبرت وود وجيمس دوكنز عام 1751، وكذلك نص رحلة ريتشارد بوكوك عام 1737، كان مصدر شغف حقيقي بالآثار السورية. حتى منتصف القرن التاسع عشر، لم يتردد المغامرون والعلماء على حد سواء في المغامرة في مناطق مجهولة، مثل حوران أو وادي الفرات من أجل استكشاف مزيد من الآثار.

يأتي بعد الرحالة العلماء لدراسة هذا التراث الغني وإلقاء الضوء على تاريخ لم يوثق. وقد أسفر الانتداب الذي مارسه فرنسا على سوريا ولبنان بعد الحرب العالمية الأولى عن افتتاح العديد من المشاريع الأثرية وكذلك تفسير الكتابات المنقوشة، والتي كان العديد منها لا يزال نشطاً حتى عام 2011. في ذلك التاريخ، كانت حوالي عشرين بعثة دولية تعمل على استخراج وإلقاء الضوء على تراث استثنائي. لكن الدمار الهائل والنهب الذي تسببت فيه عشر سنوات من الحرب أدى منذ ذلك الحين إلى خسائر لا يمكن تعويضها.

تقترح علينا المؤلفة رحلة لاستكشاف هذه المغامرات الأثرية المزدهية بمفاجأتها واكتشافاتها الرئيسية منذ القرن السابع عشر.

## فينومينولوجيا المادة

المؤلف: تحت إشراف بيير جان رينو،

كلود فيشنو سباك

الناشر: منشورات CNRS باريس. فرنسا

سنة النشر: 2021

عدد الصفحات: 368 صفحة

اللغة الفرنسية



نشأت فينومينولوجيا من السؤال النقدي لمفهوم «الظاهرة» ومن الجهود لإعادة تركيز التحليل الفلسفي على وصف أشكال تجلي الظواهر. لذلك يبدو أن أي سؤال يتعلق بالوضع الأنطولوجي للمادة قد تم تنحيته جانباً.

ولكن وعكس كل التوقعات، احتلت مسألة المادة مكانة مهمة للغاية ضمن هذا التقليد الفلسفي، ربما كموضوع مركزي أكثر من كونه مشكلة يتم تنظيمها وتنويعها. على الرغم من الاختلافات بين وجهات نظر هوسرل وهايدغر وشيلر وباتوتشكا وسارتر وليفياناس وهنري، فقد فرضت المادة نفسها في كل مرة باعتبارها حجر الزاوية في علم الظواهر ومقاصدها الوصفية، مما أجبرها على عدم فصل وصف التجارب الحية من الظروف الملموسة والمادية لتحقيق التجربة. وبذلك، فإن الحالة المبهمة للمادة تجعلها المكان المميز لتحليل التوترات التي تشكل منهج وموضوع فينومينولوجيا. المساهمات التي جمعت في هذا المجلد، كانت حريصة على استعادة تعقيد المستويات المختلفة لتضمين فكرة المادة، إذ اعتبرت خيطاً مشتركاً لإعادة قراءة نقدية للحظات الأساسية للفكر الفينومينولوجي.

## وجهات نظر مختلفة حول الأوبئة

علم البيئة والتطور والمجتمعات

المؤلف: تحت إشراف باتريشيا جيبير

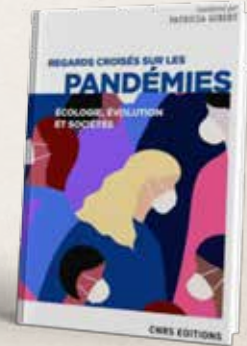
الناشر: منشورات CNRS باريس. فرنسا

سنة النشر: 2021

عدد الصفحات: 128 صفحة

اللغة الفرنسية

إن الأزمة الوبائية الخطيرة التي نعيشها ليس على مستوى الصحة فقط، بل هي أيضاً أزمة بيئية واجتماعية. فإذا كانت الأزمة تتحدى ثنائية الطبيعة / الثقافة، فإنها تدعو أيضاً إلى تجديد العلاقة بين العلم والمجتمع. إن التغيير في استخدام الأراضي، وإزالة الغابات، وتربية الحيوانات المكثفة، والتعدين، والصيد، والتعمير، وفقدان التنوع البيولوجي: كل هذه العناصر تزج الحياة البرية وتعزز انتقال مسببات الأمراض بين الأنواع. ثم تتكفل عولمة التجارة بنقل وانتشار الفيروسات في أنحاء العالم جميعه. لكن المجتمعات البشرية ليست كلها متساوية عندما يتعلق الأمر بخطر الإصابة. هناك أسباب وراثية لذلك، لأن السكان البشريين ليسوا موحدين وراثياً ولمسببات المرض قدرة كبيرة على التكيف، ولكن أيضاً لأسباب ثقافية واجتماعية، بسبب الدور الرئيسي للسلوك. في حين أن الأوبئة واسعة النطاق متكررة نسبياً في تاريخ البشرية، فإن الأوبئة في الماضي، وإدارتها من قبل المجتمعات في ذلك الوقت، لم تتم دراستها بعمق إلا مؤخراً. ومع ذلك، تعد هذه الدراسة عنصراً أساسياً للنمذجة، وبالتالي التنبؤ، بتطور الجائحة الحالية وكذلك الجائحة التالية، وتأثيرها على مجتمعاتنا. يجمع معهد الإيكولوجيا والبيئة التابع لـ CNRS، ويهدف إلى الاستجابة لتحديات الكوكب التي يفرضها التغيير العالمي على المجالات البيئية بين علوم الأرض والحياة والعلوم الإنسانية والاجتماعية، كما يتوفر على جميع المهارات اللازمة لدراسة هذه الظواهر الوبائية والبيئية، لهذا يشكل الكتاب أهمية قصوى لتجنب ما لا تحمد عقباه مستقبلاً.

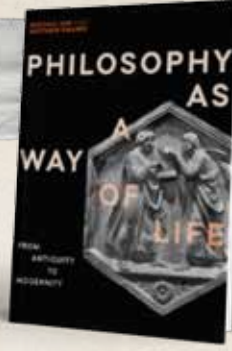


# إصدارات عالمية جديدة

اللغة الإنكليزية (محمد الشيخ)

## الفلسفة بحسبانها سبيلا إلى العيش (من القدامة إلى الحداثة)

المؤلف: ماثيو شارب وميخائيل أور  
دار النشر: بلومسبوري أكاديميك  
سنة النشر: 2021



يذكرنا هذا الكتاب بالكتاب الذي فتح للفلاسفة المعاصرين الباب إلى هذا النمط من التأليف: «الفلسفة طريقة للعيش» (2001) للفيلسوف الفرنسي الشهير بيير هادو والذي قدم فيه تصور الفلاسفة القدامى لطرائق العيش التي بات يُرجع إليها اليوم؛ من رواقية وأبيقورية وغيرها من فلسفات العيش. والحال أن فكرة الفلسفة بحسبانها سبيل عيش تتغيا الحياة الطيبة والسعادة والوجود الخلق ما كانت فكرة مستحدثة، بل وجدت لها أصول في الفكر القديم، بل تقليد، بله تقاليد. لكن المؤلفين يحققان الأصل ويدققان المصدر آخذين بأيدينا من أفلاطون وبودا، من الأقدمين، إلى فوكو وهادو وجيجيك، من المعاصرين. وهما يفحصان أمر «المران على العيش» هذا عند كل مفكر مفكر وممارسته التي تجعل من فلسفتهم طرائق عيش وفعل. كما أنهما يبحثان الجانب العملي للفلسفة وعيش الواقع مثلما باتت تتصورهما بعض النزوعات المعاصرة، وبيبران أنه لا زال للقدماء ما يمكن أن يقولوه إلينا بهذا الصد، وأن قوله: «ما ترك الأوائل للأواخر شيئا» محبطة للآمال والأعمال.

## توجهات فلسفة ابن سينا (مقالات في حياته ومنهجه وميراثه)

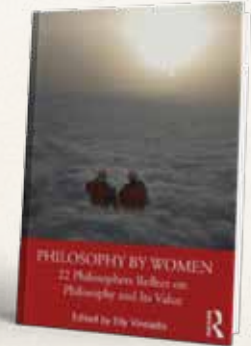
المؤلف: ديمتري جوتاس  
الناشر: راوتلج  
سنة النشر: 2020



باتت العناية بالفلسفة العربية الإسلامية - وباللمفارقة! - تتم في البلاد الغربية؛ تلك البلاد التي لطالما كان رأى مستشرقوها أن الفلسفة العربية إنما هي فلسفة يونانية مكتوبة بأحرف عربية. لكن ها نحن أمسينا أولاء باحثين غربيين جادين من الرعيل الجديد بات من الصعب أن ينعوتوا بأنهم «مستشرقون» أو يبرزوا بهذا اللفظ الذي صار محملا بدلالات وخيمة. وما كان هذا الكتاب الذي بين أيدينا ببدع من ذلك، ولا كان صاحبه باستثناء في هؤلاء. إذ يضم هذا الكتاب بين دفتيه سبع دراسات عن ابن سينا امتد تأليفها على مدى ربع قرن. وقد سعى صاحبها إلى تسويق فلسفة ابن سينا في سياقها التاريخي والفلسفي باعتبار هذا التسويق وسيلة لتحديد مشروع ابن سينا الفلسفي وتوجهات فكره العامة. وقد أدار المؤلف هذه الدراسات على حياة ابن سينا وأعماله ومنهجه وتصوره للمعرفة وتلقيه المتأخر في العالم الإسلامي، واختتمها صاحبها بتقرير عن حال الدراسات السنيوية وعن مآلها.

## الفلسفة من لدن النساء (اثنان وعشرون فيلسوفة تتأمل في الفلسفة وقيمتها)

المؤلف: تأليف جماعي  
دار النشر: راوتلج  
سنة النشر: 2020



ألا كم أنزل تاريخ الفلسفة من الظلم بالمرأة، سواء باعتبارها موضوع تفكير فلسفي أو بحسبانها كائنا يتعاطى فعل التفلسف! من الجهة الأولى، ثمة لغيف من الفلاسفة كتبوا في المرأة كتابات نقدية ساخرة مخجلة؛ شأن فولتير وشوبنهاور ونييتشه وغيرهم كثير. ولم ينصفها من المحدثين اللهم إلا جون ستوارت مل في كتابه: استعباد النساء. ومن الجهة الثانية، تجاهل الكثير من مؤرخي الفلسفة بعامة الوجوه النسائية في تأريخهم للمذاهب الفلسفية. إلا أن الوضع بدأ يتغير منذ عقود. وآخر العنقود هذا الكتاب الذي جمع أزيد من عشرين فيلسوفة، أغلبهن مجهول للجُمهور العربي، للتأمل في التساؤلات التالية: ترى، ما الفلسفة؟ ولماذا هي مهمة؟ وهل تختلف إذا ما كتبت المرأة فيها وعنها؟ وذلك في سياق تنامي الاهتمام بالفلسفة خاصة وبالعلوم الإنسانية عامة، وتزايد طرح مسألة النوع والمناصفة بحسبانها باتت مسألة عمومية جوهرية. وفي هذا الكتاب تروي مجموعة من الفيلسوفات المعاصرات عن كيف تفكرن في الفلسفة، وما الذي تشكله بالنسبة إليهن، وكيف يطبقنها في حل المعضلات المعاصرة؛ وذلك من خلال رواية تجاربهن الشخصية في مضمار الفلسفة.

# إصدارات عالمية جديدة

اللغة الإيطالية (عز الدين عناية)

## إعادة تأهيل الرهبان

تأليف: إنريكو برانكوتسي  
الناشر: منشورات دوهيانو  
(مدينة بولونيا)  
سنة النشر: 2021  
عدد الصفحات: 191 صفحات  
اللغة الإيطالية



## مجمع وستة بابوات

المؤلف: جان فرانكو سفيدر كوتسكي  
الناشر: منشورات دوهيانو  
(مدينة بولونيا)  
سنة النشر: 2021  
عدد الصفحات: 187 صفحة  
اللغة الإيطالية



يشغل مؤلف الكتاب مهمّة عميد في جامعة كاثوليكية. يحاول في كتابه طرح قضايا إعادة تطوير الرهبنة بما يجري تحول المجتمعات المسيحية الغربية. والمقصود بالرهبنة كافة المنضوين في السلك الديني من طلاب لاهوت ومكّرسين للخدمة الدينية وراهبات ومبشرين بأصنافهم. إذ يدرك الرجل التحديات التي تواجه الخطاب الديني المسيحي في مجتمعات علمانية، وهو ما يفرض تغيير أساليب التعامل معها. فما من شك أن الشكل القديم الذي تربى عليه رجال الدين والثقافة التي تم تشربها بات كلاهما غير ملائم لمجتمعات متحركة.

يستعيد الإعلامي سفيدر كوتسكي الذي شغل مناصب إعلامية بارزة في حاضرة الفاتيكان الأثر الذي خلفه بابوات روما الذين رافقوا حقبة مجمع الفاتيكان الثاني (1962-1965)، منذ الإعداد إلى الانعقاد، وما تلا ذلك من تفسير لروح المجمع وتفعيل لقراراته. لا شك أن لكل بابا من بابوات الكنيسة استراتيجية لاهوتية خاصة، وأن هناك اختلافات في تفسير روح القرارات المجمعية، ولكن جميعهم يحقّزهم حرص على جعل الكنيسة مهيمنة ومؤثرة في العالم، ذلك ما يحاول سفيدر كوتسكي الإتيان عليه في كتابه.

## النقد الذاتي في الكنيسة

المؤلف: روبرتو أوليفا  
الناشر: منشورات ميساجيرو (بادوفا)  
سنة النشر: 2021  
عدد الصفحات: 82 صفحة  
اللغة الإيطالية



هل تستطيع الكنيسة مراجعة تاريخها وإعادة النظر في خياراتها؟ يبدو هذا الخيار رهين التخلص من الفردانية الطاغية على مسارها. ذلك ما يمثل محور كتاب رجل الدين روبرتو أوليفا. فالمؤلف ينطلق من تجربة داخلية في الكنيسة مبرزا الحاجة الملحة إلى خوض تلك المهمة، وفي الآن نفسه يستعرض المصاعب المحيطة بذلك التمشي. فلا شك أن النقد الذاتي كما يذهب إليه الكاتب هو نقد إصلاحي غرضه الخروج من حالة الجمود ومحاصرة الفساد قبل أن يصير المطلب خارجيا، وحينها تدخل الكنيسة في مأزق أخطر.